10 me Année No. 444

Lundi - 5 - 1 - 1942

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Littéraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
مـ
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العـــدد ٤٤٤ « القاهرة فى يوم الإثنين ١٨ ذو الحجة سنة ١٣٦٠ — الموافق ٥ يناير سنة ١٩٤٢ » السنة العاشرة

الفهـــــرس

صفحة		
١	الرسالة فى عامها العاشر ...	أحمد حسن الزيات ... ...
٣	أحلام العام الجديد	الدكتور زكى مبارك ... ...
٦	ظاهرات نفسية فى مسرحيات محمود تيمور	الأستاذ زكى طليمات ... ...
٩	التبعة والعقوبة فى المجتمع البشرى القديم	الأستاذ رفعة الحنبلى ...
١٣	أنطون تشيكوف الكاتب الروسى العالمى	الأستاذ خليل هنداوى ...
١٧	فى الخبأ	الأستاذ محمد محمود دوارة ...
٢٠	المصريون المحدثون : شمائلهم وعاداتهم	المستشرق إدورد وليم لين بقلم الأستاذ عدلى طاهر نور
٢٣	برقــة ... ... [قصيدة]	الأستاذ عبد اللطيف النشار
٢٤	الرسالة فى عيدها العاشر »	الأستاذ أحمد أحمد العجمى
٢٥	ليلة عيد الميلاد ... [قصة]	الكاتب الإنجليزى « نيودور وجوه » بقلم الأستاذ كامل يوسف ...

الرسالة

فى عامها العـاشر

باسم الله تخطو الرسالة إلى عامها العاشر ؛ وبغير اسم الله نورِ السموات والأرض لا يهتدى فى هذا الظلام الحالك سارٍ ولا سائر . والظلام فى هذا الكوكب طبيعة أصيلة ؛ فأناره الله بالشمس والقمر والدين ؛ وأنرناه نحن بالزيت والكهرباء والعلم ، حتى أوشك أن ينجاب الحلَك الغاشى عن آفاقه وأخلاقه ؛ ولكن سلائل الطين لا تستضىء بصائرهم وسرائرهم بغير الدين ؛ فإذا أطفأوه فى قلوبهم تنفسوا الظلام فإذا الدنيا ضلال وجهل ! وإذا العالم دمار وهُلك ! وتلك هي الحال التى يكابدها الناس اليوم : ظلام فى بلاد الأرض ، وظلام فى نفوس الناس ، وظلام فى وجوه المستقبل ! فمن يخرج يده لا يكدْ يراها ؛ ومن يتعلق بسبب من أمله انقطع به ! ومن ينظر فى صفحة الغد عَمِيت عليه ! ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور !

* * *

الظلام ! الظلام ! الظلام ! ذلك هتاف الأمان ودعاء السلامة فى كل أمة من أمم الشرق والغرب اليوم ! فليت شعرى هل

تأله الشر وتحكم الشيطان وصدقت المانوية[1] ؟

غشينا ظلام الغرب ولفّنا ليله الأليل ؛ فكأنما انطفأت في مشرقنا عين الشمس ! وما كان الغرب منذ دحا الله الأرض إلا مهبط ظلمة ؛ وما كان الشرق منذ أوقد الله الشمس إلا مطلع نور . فإذا دجت الآفاق واستسرّت المعالم كان معنى ذلك أن الشرق قد انكفأ فلم يرسل شمسه ولم يبلغ رسالته !

والحق أن منازل الوحي من الطور والجليل وحراء قد أصبحت ترسل أمواج النور الإلهية لغير قابل . كان لها من نفوس الأنبياء أجهزة من صنع الله تقبلها وتنشرها وتهدي بها وتدعو إليها ؛ فلما خُتمت النبوة وانقطع الوحي ورث الخلفاء والعلماء رسالة الله فكانوا كورّاث الملك أو المال ، منهم القاعد المضيع ، ومنهم الجاهد الكاسب . ولو شاء ربك أن يدرك النصرَ أولياؤه ، ويطبّق الأرض دينُه ، لجعل الناس أمة واحدة ؛ ولكن لا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم !

لا تزال منازل الوحي ترسل الأمواج السماوية بالهدى ودين الحق ؛ ولكن الله الذي يضل من يشاء ويهدي من يشاء حرم الناس نعمة القبول فاستأسدت فيهم الغرائز ، وأسرفت عليهم المطامع ، وتفرقت بهم المذاهب ، وذاقوا من فساد النظام وطغيان الحكام ما لم يذقه الحيوان الأدنى من القتل والجوع والجور والبؤس والفوضى

وكان الظن بالأزهر الذي قام للدين ، وعاش بالدين ، أن يكون لأمواج الوحي الخالد محطة استقبال وإذاعة ؛ ولكنه انقطع عن ركب الحياة تخضع لعوادي الدهر القاهر ، خضوع القلعة المحصورة للمغير القادر !

على أن هذه الحرب العالمية هي كما قلنا القيامة الصغرى ؛ ومن الحتم أن سيكون بعد القيامة الخلق الجديد والحياة الفضلى . والواقع في الظن أن الأزهر يمهد لهذا الانبعاث ، ويهيئ لهذه الحياة . وما هذه الروح التي دبت في (جماعة كبار العلماء) آخر العام المنصرم إلا نفحاتُ الربيع الأولى يرسلها النيروز لتُجري الماء في الأعواد ، وتوقظ الحياة في البراعم

* * *

لعلك تقول لنفسك : ما بال الرسالة لا تنفك تذكر الأزهر في معرض الإصلاح والنهضة ، وما الأزهر في رأي أكثر الناس إلا متحف آثار ومقبرة أفكار وطلل مذاهب ؟

وقولي فيما تقول أن الشرق لا ينهض إلا بالدين ، وأن الدين لا ينهض إلا بالأزهر . ولست أقصد بالدين هذا الدينَ الذي يعتقده المسلم المعاصر ، ولا بالأزهر هذا الأزهرَ الذي تراه في نظامه الحاضر ؛ إنما الدين الذي أعنيه هو دين القرن الأول ، والأزهر الذي أبنيه هو أزهر القرن الرابع عشر . أريد الدين النقي القوي الذي فتح الممالك ، ومدّن الأمم ، وكرّم الإنسان ، واحترم العقل ، وفرض المعرفة ؛ أما هذا الدين الذي يقول بسيادة الأولياء ، وتمجيد القبور ، وتقديس القديم ، وإيثار التواكل ، ومخادعة الله بالحيل ، ومداراة القادة بالنفاق ، فليس دين الله ؛ إنما هو دين هؤلاء الأوزاع الأتباع الذين ضلّوا وذلّوا فرقتهم الأحداث ، وأكلتهم المطامع ، وأصبحوا نهباً تتقاتل عليه الدول ويعتدل بتقسيمه التوازن

وأريد الأزهر الجديد الذي يضع لثقافة الشعب أساساً من الدين ، يقوى بقوة الله ، ويثبت بثبوت الحق ، ويدوم بدوام الدنيا ؛ ثم يقيم عليه من القواعد والنظم والأوضاع ما يقره العقل ويؤيده العلم ، ويتقبله العصر ، وتقتضيه الحاجة ؛ أما هذا الأزهر الذي يَشغله الكلام ، ويجترّ الماضي ، ويقتات الفُتات ، ويبطل الاجتهاد ، ويعطل العقل ، فهو مسجد من المساجد الأثرية لا أقل ولا أكثر

* * *

أما بعد ، فقد عوّدتك يا قارئي العزيز أن أتحدث إليك في مطلع كل عام عن بلاء الرسالة في الجهاد وعملها في المستقبل ؛ وإنك لتعلم أن هذا الظلام الشامل الكثيف الذي ضرب على أبواب الغد حجباً فوق حجب ، يجعل مثل هذا الحديث أقرب إلى لغو الكلام وعبث الأماني . فاسأل الله أن يتولانا في هذه الأزمة العامة برحمته وفضله !

احمد حسن الزيات

(١) المانوية مذهب ماني ، وهو رجل ولد في فارس حوالي سنة ٢٧٤ م ، وكان يقول بأن العالم تتولاه قوتان متضادتان : قوة من طبيعتها الخير وهي الله أو الروح أو النور ، وقوة من طبيعتها الشر ، وهي الشيطان أو المادة أو الظلام ، وقال المتنبي :

وكم لظلام الليل عندك من يد ـ تخبر أن المانوية تكذب

أحلام العام الجديد

للدكتور زكي مبارك

للدكتور زكى مبارك

التفت أخونا الأستاذ الزيات فرأى العام الجديد لا يخيفه إلا من ناحية « استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف » ، فتوكل على الله وقرر أن « الرسالة ستستمر على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والإهداء مع المشتركين القدماء ؛ أما المشتركون الجدُد فيؤدون الاشتراك كاملاً ، مقسّطاً أو غير مقسّط » . وبهذا ظهر « امتياز » الصديق القديم على الصديق الجديد !

والتفتُّ فرأيت العام الجديد يخيفني من ناحية غير تلك الناحية ، فأنا لا أشكو غلاء الورق ولا ارتفاع موادّ الطباعة ، بعد أن أرجأت النظر في طبع مؤلفاتي الجديدة إلى أن تنتهي الحرب ؛ وإنما أشكو غلاء العواطف وارتفاع أثمان الصدق إلى ألف ضعف لا عشرة أضعاف

وما ظنُّكم بزمان لا يبرح شعراؤه في غير الحديث عن « الرغيف » ، كالذي ترون من يوم إلى يوم في بعض الجرائد والمجلات ؟

ما ظنُّكم بزمان يعدّ فيه الحديث عن أحلام القلوب ضرباً من الفُضول ؟

إن هذه المحنة العاتية هي الفرصة لاختبار ما عند أدبائنا من عناصر الثروة المعنوية ، فبها نعرف ما عندهم من أرزاق الروح والذوق والوجدان

أيكون الكلام عن « الرغيف » تودداً إلى أهل البطون ، وهم ألوف أو ملايين ؟

إن كان ذلك فأين الأريستوقراطية الأدبية وهي تسمو على الحاجيات اليومية ؟

أيكون الكلام عن الرغيف فرصة من فرص القول يهتبلها من لا يصل إلى بعض الجرائد والمجلات إلا بعناء ؟

إن كان ذلك فأين تصوّن الأديب عن الكلام المبذول ؟

سمعت — بل علمت — أن مدرساً في « قنا » أرسل إلى [illegible] برقية يشكو فيها انعدام الرغيف ، فإذا وقع من الخطار حتى يجوز مثل هذا الصراخ ؟ وماذا نصنع لو أصبحت بلادنا وهي ميدان حرب ، وقد تصير كذلك إذا طال استمراء المتحاربين لما اندفعوا إليه من استطابة الجنون ؟

وإذا استجاز « المدرس » أن ينظم القصائد الطوال في الشوق إلى الرغيف وهو مدرس يقتات بالعواطف والأحاسيس ، فماذا يصنع « الفلاح » أو « الصانع » وهما شخصيتان تعتمدان في القوت على الرغيف ؟

لعل الأيام أرادت أن تعلمني ما كنت أجهل ، فقد طال مني التجني على الصوفية (وكانوا يدعون إلى التحرر من ربقة الرغيف) فهل كان للرغيف مثل هذه الآفة في العصور الخوالي ؟

ولعل الأيام أرادت أن تقنعني بأني صرت من الحكماء من حيث لا أعرف ، فقد هجرت الخبز منذ أعوام طوال ، واكتفيت بما تيسر من الخضروات ، بغض النظر عن اللحم الذي [illegible] باسم النقد الأدبي ، وهو لحم غاب اسمه من « دولة الحاكم البكري » فلم يفرض على من يتناشه أي عقاب !!!

ما تهمني أزمة الرغيف ، وإنما تهمني أزمة القلب

ولو كان في وزراء مصر لهذا العهد من عانى أزمات القلوب لعرف كيف يحارب أزمة الرغيف ، لأن القلب هو الأساس في فهم أخطار الوجود

الظبية تجتزئ بالعشب فتستغنى عن الماء ، ومن أجل هذا سُمّيت جازئة ، و « جازية » اسم من أسماء الملاح في هذه البلاد وإن لم يعرف الجمهور ما فيه من معنًى ملفوف

فإذا فقدت الظبية العشب ، فكيف تعيش وبه غنيت عن الماء ؟

لن أنسى أبداً سخرية « فاجيه » من « أفلاطون » ، وفاجيه كان أكبر من اهتممت بآثاره الأدبية والفلسفية من بين أقطاب الأدب الفرنسي ، ومن سيرته تعلمت أشياء هي الهادي والدليل في حياتي الأدبية ، فأنا أسجل كل ما يختلج في صدري قبل أن يضيع ، ثم أقدمه للجرائد والمجلات حين أشاء ، بلا تقيد بالمكان والزمان !

وفي هذه المرة أكون أعظم من أستاذي فاجيه ، فقد سخر من تسامي الفلاسفة إلى ولاية الحكم وهو ينقد أفلاطون . أما أنا فأرى أن الفلاسفة هم أقدر الناس على إقامة الموازين بالقسطاس

نحن ، رجال القلم ، أعرف خلق الله بما يختبر في الصدور من آلام وآمال !

كانت الحكومة إلى رجال يعيشون فى حصون تقفل أبوابها بالنهار وبالليل : فلا يعرفون ما يعانى الشعب من ظلمات الحوادث والخطوب ...

ولم نكن كأولئك ، فنحن قوم نعيش الشعب وفى صحبة الشعب ، ولنا فيه أعمام وأخوال ، ولن نجنى عليه بأى حال

ونحن مع هذا مرءوسون لدسائس سود ، ومن الواجب أن نبدّد تلك الدسائس ، بلا تسويف ، تمهيداً للوزارة التى سنؤلفها فى العام الجديد .

قيل إن الزيات معانق فى الأسلوب ، فهو يزاوج بين لفظ ولفظ بغير عناء ؛ وأقول إن هذه النزعة تنفع فى المزاوجة بين الطبقات والأحزاب ، حين يمسى الزيات وهو رئيس الوزراء

وقيل إن العقاد مولع بوصل ما بين الشرق والغرب فى الآفاق الفكرية ، وأقول إنه أصلح الأدباء لتولى وزارة الخارجية .

وقيل إن أحمد أمين لا يجيد الكلام فى غير البحث المطروق ، وأقول إنه أصلح الناس لوزارة المواصلات ، فلن نجدد فيها إلا بعد انتهاء الحرب .

وقيل إن المازنى أول أديب حجّ بيت الله فى غير موسم الحج ، فهو إذن أصلح الأدباء لأن يكون سفير مصر فى الحجاز ، وإن قال فى صلاة « زكى باشا » ما قال .

وقيل إن توفيق الحكيم يقدس « السيدة زينب » فهو إذن وزير الأوقاف .

وقيل إن طه حسين لم يُجد فى « هامش السيرة » غير الحديث عن « الراهب » فهو إذن وزيرنا فى بلد النجاشى .

وقيل إن محمود تيمور لا يحسن القول إلا فى وصف الطبقات الشعبية ، فهو إذن وزير الشؤون الاجتماعية .

ولا موجب للحديث عن الأدباء النَّدَرَة من أمثال : عبد القوى أحمد ومحمد هيكل ومصطفى عبد الرازق ؛ فقد تولوا الوزارة قبل أن يستأذنوا إخوانهم من رجال القلم البليغ !

بقى مكانى فى الوزارة المنشودة ، فما عسى أن يكون ؟

هل أختار وزارة المعارف ؟

وكيف وهى وزارة متعبة ، وما تولاها رجل إلا عرف خطر المشى على الشوك ؟

صار من تقاليد وزارة المعارف أن يهدم الخلَف ما بنى السلف ، وأنا أكره التقلبات الكثيرة ، وأبغض التهييج المفصّل ، والصياح الممنوع .

يضاف إلى ذلك أنى نشرت مقالات تفوق العدّ والإحصاء فى شؤون التربية والتعليم ، ومن الجائز أن يطالبنى الجمهور بتحقيق ما اقترحت فى تلك المقالات ، وهنالك الخطر كل الخطر ، إلا أن أروض نفسى منذ اليوم على التنصل من تلك المقترحات !

هل أختار وزارة الداخلية ؟

هذا هو المركز اللائق برجل يغضب للشعب ، ويثور على الاحتكار والمحتكرين .

إن توليت وزارة الداخلية ـ وهذا أمرٌ قريب ـ فسأفرض على رجال الحكومة فى مختلف الأقاليم أن يعرفوا جميع البيوت وجميع الناس ، ليدلوا الدولة على المستور من الثروات والنيات ، وسأجعل من سلطة الشرطة جيشاً يمزق الشراذم الباغية على الأمن والنظام ، وهل يهدّد الأمن والنظام مثل الإسراف البغيض على احتكار الأقوات ؟

لن أنتظر حتى ينتفع النـاس بوعظ الواعظين ، وإرشاد المرشدين ، فقد ظهر أن فى الدنيا قلوباً لا يقوّمها وعظٌ ولا إرشاد . لن أنتظر غير حكم العدل ، والعدل يوجب أن يعرف وزير الداخلية حقيقة الثروة المدفونة فى زوايا البيوت ، بيوت الأغنياء والفقراء ، فأنا أخشى أن تكون هذه الأيام قضت بأن يكون فى الفقر تزوير وانتحال « ولم يكن المصريون كذلك فى الأيام الخالية ، فقد كانوا يسترون الفقر عن الأقربين قبل الأبعدين »

إن توليت وزارة الداخلية ـ ويجب أن أتولاها ـ فسأحرم العمد نعمة الثرثرة فوق المصاطب ، وسأحولهم إلى جنود نافعين ، فأولئك أقوام يعلمون من أمور بلادهم كل شىء ، ولكنهم يكتمون ما يعلمون ، فإن طووا عنى ما يجب أن أعرف فسأقضى فيهم بالعدل ، وهم يفهمون جيداً خطر العدل .

أليس من العار أن يصبح التموين مشكلة من المشكلات فى مثل هذه البلاد ؟

وكيف تكون الحال لو شاءت المقادير أن نطالب بتموين مئات الألوف من الجنود يوم يدعو الداعى إلى الجهاد ؟

العبث فى أمثال هـذه الأيام لا يليق ، ومن العبث القبيح أن يكنز ناس ما يملكون من أصول الأقوات لينتفعوا بالربح الحرام على حساب الشعب المهدد بالجوع .

وأنا مع هذا أعرف ما تصير إليه سمعتى يوم أتولى وزارة

الداخلية ، فسيقول السفهاء من الناس إنى خليفة الحجاج ، وسيتخذون من شراستى دليلاً على أن المواهب الأدبية تنطوى على جحيم من الطغيان المكبوت .

وما خوفى من القال والقيل وأنا فى غنًى عن رضا الناس ، ولن أتقدم يوماً لخوض معركة انتخابية ؟

إن رجال الأقلام هم أصلح الرجال لسياسة الدولة فى السنين العجاف . وهل يشقى أحدٌ فى سبيل الأمة كما نشقى ؟ وهل يعرف أحدٌ من متاعب الأمة بعض ما نعرف ؟

الوزراء فى الأمم الدستورية لا يقدرون على الحزم إلا فى أندر الأحيان، لأنهم مقيدون بعواطف الناخبين ، وفى الناخبين خلائق لا تعطى أصواتها إلا لنباية مطوية ، هى السكوت عن آثامها الثقال

ولن أكون وزيراً برلمانيًّا يحسب لعواطف الناخبين ألف حساب قبل أن يُقدِم على إعزاز شريعة العدل

سأكون بإذن الله وزيراً يُختار لغرض واضح صريح : هو القضاء على البغى والفساد ، وزجر من يحرمون الشعب من الأقوات

وقد فكرت فى مصير البرلمان الحاضر ، وهو برلمان طال حوله الخلاف ، ثم صح الرأى على السكوت عن هذه المعضلة الدستورية إلى حين ، فما يتسع وقتى للنظر فى شئون تضر أكثر مما تنفع . وهل تحتاج الأمة إلى برلمان إلا حين يعوزها الحاكم الرشيد ؟ — « إنما أسأل أمام ضميرى لا أمام البرلمان »

سأفاضل بين الأحزاب على أساس غير الأساس المعروف ، فلن تكون هناك أغلبية وأقلية ، وإنما يكون التفاضل بقدرة هذا الحزب أو ذاك على توفير أسباب الرخاء

لن يقول النحاس باشا : « أنا أول من أنذر بأزمة التموين » فسأسوقه سوقاً إلى الطواف بالبلاد لدعوة أنصاره إلى الإفراج عن القوت المحبوس

ولن يقــول الدكتور ماهر باشا : « أنا أول من تأهب للحرب » ؟ فسأجره جراً إلى ميدان جديد هو حرب الغلاء !

سأغيّر من أخلاق الناس ، إن دُعيت إلى ولاية الحكم فى هذه الأيام، وليس ذلك بالأمر البعيد ، فقد جُرّبتْ جميع القُوى السياسـية ، ولم يبق إلا تجربة القوة الأدبية ، وهى أقوى من الزمان

أما بعد فهذا حلمٌ من أحلام العام الجديد ، ولكل عام أحلام هو لفتة روحية ستؤتى ثمارها بعد حين ، فمن الشر الموبق أن يحال بين رجال القلم وما يشتهون من إنزار العدل ، وما كانوا فى الحاضر والماضى إلا موازين

دعوناكم ألف مرة إلى الاعتراف بالسلطة الأدبية فلم تسمعوا ؛ ونهيناكم ألف مرة عن تناسى السلطة الأدبية فلم تنتهوا . فهل جازيناكم صداً بصد ، وإغضاء بإغضاء ؟

لا ، والله ، وإنمـا مضينا على السجية الكريمة ، فأوقدنا فى صدر الأمة جذوة الشوق إلى التماسك والتساند والتآخى ، فمـا كان فى الأمة من خير فهو من صُنع أقلامنا ، وما كان فى الأمة من شر فهو من جناية الراغبين فى السيطرة والاستعلاء

لن تصلُح الأمور إلا يوم تصبح المقاليد بأيدى رجال القلم البليغ

ومن قال بغير ذلك فهو بقية من بقايا الطغيان البغيض

أتريدون الدليل ؟

نحن نبخل بالحكم لقطعة شعرية أو نثرية حين نراها بعيدة عن الجهد المستطاب ، مع أن الحكم لقطعة شعرية أو نثرية لا يقدم ولا يؤخر فى سياسة البلاد

وأنتم تُضفون الألقاب السنية على من تحبون بغير حساب ، وقد تُسندون بعض المناصب إلى من لا تُزكّيه غير رضا كم عن أسلوبه فى حفلات الاستقبال

الأدباء هم أقدر الرجال فى مصر على عصيان الأهواء

ألا ترون كيف تحارب منافعنا فى سبيل النزاهة الأدبية ؟

نحن نصاول الأحزاب والهيئات فى كل يوم لنرفع قدر الفكر والرأى ، ونرحب بجميع المتاعب فى سبيل تلك الغاية العالية ، فأين من يصنع بعض الذى نصنع ؟ وأين الذى يعانى فى سبيل المبادئُ السامية بعض ما نعانى ؟

لو سخرنا أقلامنا فى سبيل الغايات الوقتية لسددنا الطريق فى وجوه الكثير من طلاب النفع الموقوت ، وهم أعمدة المجتمع فيما يتوهمون

إلى أقلامنا يرجع الرأى فى سياسة هذه البلاد ، وإن بعُدنا صوريًا عن المناصب الوزارية والبرلمانية ... لكل وطن روح ، وروح هذا الوطن هو رسالة القلم البليغ

زكى مبارك

ظاهرات نفسية

٢ـ في مسرحيات محمود تيمور

للأســتاذ زكي طليمات

مفتش شئون التمثيل

سبق أن قررت في مقالي السابق[١] من مسرحيات تيمور أن القيمة الأدبية الحقة للعمل الأدبي، مسرحية كان أو قصة، رهينة بما يسجله من الحقائق الإنسانية الخالدة التي تسمو على مشكلات الاجتماع، ومسائل الإصلاح الموقوت، وأزياء الأساليب البيانية، وتتجاوزها إلى ما هو أعرق في الإصالة وأجدر بالمعالجة، ألا وهو النفس البشرية بكامل كيانها، فيكون همُّ الكاتب قبل كل شيء، تسجيل سماتها والكشف عن مظاهرها ومضمراتها. ومن أجل هذا جعلت نقدي للمسرحية الأولى من مسرحيات تيمور، ألا وهي (المملوك)، معنى بهذه الناحية وتجاوزت قصداً عما سواها؛ وسيكون هذا دأبي في نقد المسرحيتين الأخريين، وهما (أبو شوشة) و (الموكب) وعلى أساس أن كياننا النفسي الكامل يتألف من العقل الظاهر (الوعي) ومن العقل الباطن (اللاوعي)، وإننا في تصرفاتنا خاضعون إلى التيارات الخفية التي تنطلق من معقل الوعي الباطن فتدفعنا إلى إتيان بادرات، لا يستطيع عقلنا الظاهر تفسيرها[٢]

النقد تنبيه وتبيين وتسجيل

إن مهمة الناقد وقد أخذ بما أسلفناه شاقة عسيرة، ولكنها مجدية للقارئ قبل كل شيء، إذ أنها تقدم له في بيان واضح وسرد مستفيض غير مقيد بأوضاع وقيم فنية مرسومة، تقدم إليه سمات هذه الشخصيات التي نلحظها في تعقيدها النفسي مسطرية مقننة، بعد أن يكون الناقد قد استخرجها من بين السطور، وقيد أوابدها، وتصيد شواردها، وحلل نزعاتها، وأسقط أقنعتها

ورب معترض يقول: وما هذا اللون من الأدب أو المسرحية الذي يحتاج إلى تفسير وتعليق وتذييل يجلو الغموض ويبدد الأبهام؟ ولم كل هذا التعليق من جانب الناقد!؟

وجوابنا: أن لا غموض ولا إبهام تلحظه العين في عمل أدبي حق، لو أن كل قارئ كان سامياً في ثقافته إلى المستوى الذهني الذي أصدر عنه الكاتب أو الشاعر عمله الأدبي الرفيع، وصدق القائل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً   وآفته من الفهم السقيم

وإن النقد كما أنه تنبيه منزه عن السقوط إلى ما يتضمنه العمل الأدبي من مفاتن ومقابح، فهو تفسير وإيضاح لما يسجله المؤلف مجملاً أو مركزاً، وقد تقيد بقيود الوضع الشكلي الذي تفرضه صياغة القصيد أو القصة أو المسرحية، وأخذ بأسباب شرائط فنية قد توجب الإغراب قصداً، وقد تحتم التلويح بدلاً من التصريح في مواقف، والعكس بالعكس في مواقف أخرى، وقد تقضي بالإيجاز الذي يضني القارئ في ناحية، لتنهكه مرة أخرى في تنقل وثبي جرئ، تدفعه من فكرة إلى فكرة، ومن خيال إلى خيال، من غير تمهيد يستطيع كل قارئ معه أن يجد الرابطة بين كل هذا

وهناك شيء آخر جدير بالاعتبار يتصل بالمؤلف نفسه مباشرة، وذلك أن النقد إذا صح أنه إيضاح وتبيين فوق تبيين، ييسر لكل قارئ استبطان دخائل العمل الأدبي الذي يقرؤه، ويبصره بمواطن الفتنة والسمو والقبح والإسفاف فيه، فهو أيضاً تسجيل وتحليل لطرائق المؤلف واتجاهاته في الأسلوب والصياغة والفكر؛ وهو أيضاً تقدير لمبلغ توفيقه في كل هذا، لأن المؤلف الموهوب قد يصدر كثيراً فيما يكتب عن وحي الساعة وقد تلبسه حال من اللاوعي، فهو لا يخضع كل سانحاته وطوارقه الذهنية إلى مقاييس الفن ومعايير البيان. إنه يرتجل أحياناً وهو يدري ولا يدري بعد أن تهيأت نفسه للخلق والابداع، وفي تسجيل هذا من جانب الناقد تبصير جديد للقارئ وإقرار صحيح لمنازل الكتاب من حيث القيم الأدبية الفنية

وفيما نحن بصدده في مسرحيات تيمور ــ وقد نحا في التأليف والتحليل النفسي نحواً يقضي بتسجيل النتائج والأعمال التي يأتيها أبطال مسرحياته من غير أن يعنى بتبيين البواعث والدوافع، وذلك باعتبار أنها أعمال تبدر من العقل الباطن ولا يستطيع العقل الظاهر تعليلها وتفسيرها ــ لا مناص من أن تكون مهمتنا الأولى إيضاح هذه البواعث التي أدت إلى النتائج، ولا يخفى أن

(١) عدد «الرسالة» رقم ٤٤٠ المؤرخ في ٨ ديسمبر

(٢) عدد «الرسالة» رقم ٤٣٩ المؤرخ في أول ديسمبر

أعمال الناس تفسر بالبواعث والدوافع قبل أن تفسر بالنتائج والغايات .

والآن فلنتقدم إلى مسرحية (أبي شوشة)

أبو شوشة

اسم لعجل مدلل ، يرعاه (مؤنس بك) في ضيعته (كفر البلابل) ، ومن العجيب أن يكون عنواناً لمسرحية اسم عجل يخور ولا يمد لسانه بحوار في المسرحية ولا ترى له وجهاً على المسرح، ولكن من يدقق قراءة هذه المسرحية لا يلبث أن يصل إلى ما توخاه المؤلف من هذا العنوان ، بعد أن يتضح له أن (أبا شوشة) ليس إلا رمزاً للحاضر الجاثم بكيانه القادر بظروفه وشواغله . (والحاضر) في هذه المسرحية عنصر هام وخطير

ترك مؤنس بك ماضيه في القاهرة منذ ست سنوات وهاجر إلى الريف وتزوج من حرائر أعيانه . له من زوجته رفيق مؤنس ، وله من توفره على الزراعة ومنتجاتها شغل وعزاء . تراه أول ما تراه في المسرحية ، محنقاً مكروباً ، لأن العجل (أبا شوشه) متوعك المزاج يعاف أكل العليق وعينه محمرة دامعة !! القصر الريفي في حيرة واضطراب ، الخدم يرقبون شفاء العجل العزيز الغالي لتعاود غبطة المزاج السيد المكروب الذي أرصد للعجل السيد خادماً يسهر على راحته

فجأة يهبط القصر نفر من الزوار من أعيان الريف ، بينهم حسنية هانم وزوجها (ظاظا بك) — وهما من سكان القاهرة — جاءا الضيعة لزيارتها بعد أن ذاع صيت نظامها ووفرة غلتها في دوائر القاهرة . فترى مؤنس بك يضطرب ويرتبك لمرأى (حسنية) وكأنه فوجئ بمجيئها، ولكنه يتغلب على ارتباكه ويرحب بالزائرين

وإذ يخلو لمؤنس وحسنية المكان بعد تمهيد حق للمؤلف في إتيان مواقفه من غير تكلف ، تراهما منجذبين الواحد نحو الآخر ، متقابلين فماً لفم ، وسرعان ما ينجلي للقارئ أسباب ارتباك مؤنس واضطرابه . . . لقد كان مؤنس وحسنية متحابين ، متعاقدين على الزواج قبل أن يهجر مؤنس القاهرة ويقيم بيته وأعماله في الريف . ولكن حدث إذ ذاك أن توفي والده وطالبته تركة موروثة مرهقة بالدين تتدحرج نحو الإفلاس والبوار ؛ فأسقط في يده ، وخابت أمانيه في الزواج ، لأن كبرياءه حجزته عن أن يتزوج من حسنية الناعمة المثرية . فترك القاهرة بغتة واستقر في الريف يرم المنهار من تركته بعد أن قطع كل رابط يربطه بالقاهرة وساكنيها . وكان أن تزوجت حسنية من ظاظا بك

هذا المشهد هو دعامة المسرحية وبيت القصيد فيها . . .

ها هما الإثنان يستذكران الماضي وذكرياته ، وها هو مؤنس يشد على يد حسنية في اتقاد ، مهيباً بها أن تنسى الحاضر وأن ترجع بعين الخيال إلى مراتع حبهما ، فتزداد التصاقاً به ، وتدني فما من فمه ، مغمغمة اسمه المحبوب ، القبلة تكاد تتم فصولاً ، الحب الخامد ينسرح من جديد و . . . .

ولكن يحدث في هذه اللحظة أن يرتفع خوار العجل أبي شوشة ؛ فإذا بمؤنس يجمد في مكانه ، وإذا بالقبلة لا تتم ، وإذا به يترك حسنية واجمة متعجبة ، ويطل من النافذة منادياً متسائلاً عن صحة العجل العزيز الغالي ! !

بادرة عجيبة ولا شك من جانب مؤنس تناقض الواقع الذي كان يعيش فيه منذ لحظة ببيان لسانه وكال وعيه !

ويستدرك مؤنس ما أتاه من غير وعي بهفوة البادرة النابية فيعاود الحديث عن الماضي ويستعين عليه في هذه المرة بمطالعة بعض صور فتوغرافية قديمة تمثله مع حسنية في مواقف عديدة .

ويبدو للقارئ أن مؤنس يحاول لاهثاً أن يستمد من هذه الصور إنقاذاً لمخيلته ويقظة لحسه . وتقع يد حسنية بين هذه الصور على رسم العجل أبي شوشة فتتبرم ؛ ثم لا تلبث أن تزداد عجباً على عجب ، إذ ترى مؤنس يأخذ بأسباب سرد مشرق عن ولادة العجل وحياته الأولى

وهكذا يبدو مؤنس متطوحاً بين (المـاضي) الذي يشده بيمين حسنية ، وبين (الحاضر) الذي يجتذبه بخوار أبي شوشة

ولا تجد حسنية موضوعاً للحديث غير الكلام عن الطقس .

ويفطن مؤنس إلى ذلك فيحتضر حسه من جديد ويأخذ في إطراء مفاتن حسنية ، فينشط حس المرأة أمام هذا الإطراء فلا تتوانى عن أن تعرض عليه أن يحضر الحفلة التي ستقيمها في القاهرة بمناسبة عيد ميلادها ، ولا تتحرج من أن تناشده معاودة حياته الأولى في ظل حبهما

مؤنس ينقاد إلى حديثها في شبه حلم لذيذ وقد غمره الماضي ، فلا نلبث أن نسمعه متبرماً بحاضره . وها هو أخيراً يقرر في غير صوت متقد أنه سيعود إلى القاهرة ، وأنه سيحضر حفلة عيد ميلادها . . . وأن الإنسان في وسعه أن يحقق ما يريد إذا صح عزمه على ذلك

وإذ هما يحتضنان ، يرن صوت الخادم وقد أقبل نحوهما . . . الخادم يدخل فرحاً معلناً أن « أبا شوشه » أكل عليقه ، وأن الصحة عاودته . . .

يا لسخرية الحاضر من الماضي !!

نرى مؤنس ينتفض فجأة وكأنه خرج من حلم بعيد وينطلق نحو الباب والفرحة ترقص أمامه ، ويدعو حسنية إلى أن ترافقه إلى مذود العجل ؛ ولكنها ترفض فيتركها وقد نسى القاهرة وحفلة العيد !!

هذا المشهد هو الرواية كلها ، وقد وفق تيمور في التمهيد لانطلاق الإيحاءات الباطنة التي كانت تطرق مؤنس وتجعله وهو لا يدري ينقض ما يبرمه وهو يدري . وفق تيمور في هذا بطريق إيرادها جمات نفسية خاطفة كانت تلوح للأمر المزمع ، والغاية المقصودة

وتجرى بعد هذا المشهد الحافل مشاهد إضافية ، نرى (حسنية) في أحدها تعلن لمن جاءوا الضيعة معها أن (مؤنس) سيحضر حفلة عيد ميلادها بالقاهرة ؛ ولكن سرعان ما يحضر مؤنس وقد امتلأت نفسه نشاطاً وفاضت غبطة ليعلن الحضور بدوره أنه سيشترك في المعرض الإقليمي بمنتجاته الزراعية ، وكان قبل ذلك متردداً في هذا الاشتراك . تمتعض (حسنية) وتقطع الحديث وهي تقترح العودة إلى القاهرة ، لأن لديها ما يشغلها لإعداد حفلة عيد ميلادها . وإذ ذاك يتذكر (مؤنس) أمر هذه الحفلة ، ويبدى حيرته كيف يوفق بين الاشتراك في المعرض وحضور حفلة القاهرة . . . ولكن (حسنية) تتدخل في الأمر تدخلاً عابراً من باب جبر الخاطر — وأغلب الظن أنها بدورها أحست فتوراً من الرجوع إلى شيء مضى وفات — ويعتذر مؤنس عن حضورة الحفلة وكأنه أنقذ من ورطة قادمة !

وتنتهي المسرحية بأن ترحل (حسنية) إلى القاهرة لتعيش هناك في (حاضرها) ، ويبقى (مؤنس) في قصره الريفي ليعيش بدوره في (حاضره) .

كل هذا يجرى ولم نر المؤلف يجعل بطلي المسرحية (مؤنس وحسنية) يحاولان تعليل تلك الإيحاءات الباطنة وتفسيرها بطريق المنطق ، بل جعلها تمرض نفسها خطفاً ، وبهذا خالف النهج الذي نهجه في مسرحيته الأولى (الصعلوك) وحسناً فعل .

* * *

والآن نتساءل ما الذي يلبس هذا الرجل (مؤنس بك) الفينة بعد الفينة ، والموقف واحد لم يتبدل زمانه ومكانه ، فنراه يتخبط وينقض قولاً ما أبرمه كلاماً ويتأرجح بين قوتين عنيفتين تشده كل منهما من ذراع لتجتذبه إحداها في النهاية ؟؟

ألا يرى القارئ معي أن هذا الرجل يحاول عبثاً إرجاع الماضي وبعثه بذكريات الذكرى ومطالم نفسه وبشخص المرأة التي كانت له شريكة فيه ؟؟ وأن الحاضر يأبى عليه ذلك ويسير على شرعته الأزلية من أن ما فات مات ، وأن لا رجعة لما أغرقه الزمن في لجته ؟؟

نعم هو هـذا . وأن الذي كان يلبس الرجل ويدفعه بقوة خفية إلى التناقض إنما هو سيطرة الحاضر الذي أقام لنفسه في الواعية الباطنة سلطاناً يدفع به وثبة الماضي إذا قدر له أن يستفيق من همدته وتهيأ للانسراح بعد انكماشه ، والماضي بدوره له في الواعية الباطنة منازل ينطوى فيها على نفسه ولكنه يقنع من السلطان بأن يكون معين الصراع بين المادة والخافقة ، وأن يكون الشرفة التي نطل منها على المستقبل .

لا سبيل إلى احياء الماضي ، تلك هي المسألة التي أثارها تيمور في مسرحيته — الماضي لا يعود — وبعد هذا أن النظرة إلى الأشياء تتغير بتغير الميول ، والميول تبدل أثوابها بمرور الزمن ، الزمن الذي يبلى كل شيء ويسير دائماً إلى الأمام دون أن ينظر إلى الوراء ، الزمن الذي يستبد فينا بحاضره ، ويدفعنا بشواغله والتزاماته إلى أن نحيا فيه . فكأن النظرة إلى الأشياء مقضى عليها بالتغير ، ومتى تغيرت النظرة تغيرت معها معالم الدنيا من إنسان وجماد .

لقد نال الزمن من (مؤنس) وهو لا يدري ، كما نال من نفس (حسنية) وهي لا تشعر ، ولم يكن حظها في هذا أرفق من حظ مؤنس ، وآية ذلك أنها حينما أجابت نداء (الماضي) عن لقائها حبيب القلب الثائر وانساقت مع دفعاته الفاترة المتقطعة ، لم تستطع أن تدفع سلطان (الحاضر) بل كانت في محاولتها إحياء الماضي ، كما كان (مؤنس) ، متعثرة على الرغم منها .

ولو أن تيمور أجرى موضوعه على الرجل دون المرأة لأوقع بالمسرحية ثلمة تنفذ إليها منه المؤاخذة ، ولكنه فطن إلى ما لا يفطن إليه عادة غير المرتاض بصياغة القصة المتمرس بعرض موضوعه عرضاً صادقاً كاملاً .

التبعـــة والعقوبة
فى المجتمع البشري القديم
للأستاذ رفعة الحنبلي

ساد المجتمع ، خلال العصور القديمة ، نوع من النظم الاجتماعية ، وضرب من المبادئ الفطرية ، أخذ بها طوال المدة التى جنح فيها إلى التفكير الهزيل ، والمعرفة الضئيلة ، والعلم القليل مما كان له أثره فيه . فاتسم بطابع خاص يتميز به عن بقية المجتمعات الإنسانية الأخرى ، ولم يقتصر على الثقافة فحسب بل تناول التقاليد والعادات أيضاً

وفى الواقع أنه إذا تقصى المرء أحوال المجتمع البشرى القديم فى الأزمنة الغابرة ، ودرس نظمه الاجتماعية ، وتفهم نفسية أفراده وأخلاقهم ، والتمس ميولهم ورغائبهم ، وتبين عاداتهم وتقاليدهم ، واتصل بهذه النظم على ضوء الدرس المنظم وعن طريق التتبع والاستقراء ، تكشفت له عن حياة اجتماعية متأخرة ، وبيئة ضيقة ، وعقلية محدودة وتفكير سقيم تتباين مع الحياة الاجتماعية الأخرى فى المجتمعات الثانية وبيئتها وتفكيرها وعقليتها ، هذه الحياة الاجتماعية توقفنا على درجة من درجات رقى المجتمع وحضارته وتكشف لنا عن سمة من سمات الطبع والنفس ، ومظهر من مظاهر الروابط الاجتماعية والقيم الخلقية

على أن هذه الحياة لا تزال يشوبها كثير من اللبس والغموض ، ولا تزال تكتنفها ظلمة كثيفة فى كثير من أفيائها وإن أخذ بعض علماء الاجتماع — يدفعهم فى ذلك حب البحث والاستقراء والحاجة الملحة إلى المعرفة — يبددون ما أحاط بها من ظلمة ، وما اكتنفها من شوائب

ومن النواحى التى درسها علماء الاجتماع ناحية جليلة خطيرة لها أثرها المباشر فى الحياة الاجتماعية وفى مقومات المجتمع البشرى أيضاً : هذه الناحية تعرف بالتبعة Responsabilité والتى عرفها المجتمع فى الوقت الذى عرف الإنسان فيه العمل الاجتماعى واضطلع به ، إذ ذهب هؤلاء العلماء إلى أن التبعة كانت معروفة عند أكثر الأمم والشعوب القديمة . وقد استمدت بعض المجتمعات الحديثة نتفاً من قوانينها ونظمها فدعمتها بما ابتكرته من نظم وقوانين حملت الإنسان تبعة ما يقوم به من عمل اجتماعى أو أدبى أو غيره .

والواقع أن المجتمعات البشرية تختلف باختلاف درجتها فى سلم الحياة والارتقاء . فعلى قدر ما يكون المجتمع البشرى من الرقى والحضارة يحتاج إلى نظم جديدة تتلاءم مع الحضارة والرقى اللذين أخذ بهما ؛ فالمجتمعات والحالة هذه لا تتمشى على نظم واحدة ، ولا تتقيد بقوانين واحدة ، بل لا بدّ لها من نظم مختلفة وقوانين متباينة تميز المجتمع الواحد عن الآخر وتصور نفسية أفراده وبيئتهم ودرجة رقيهم وحضارتهم

بقيت مبادئ التبعة التى أخذ بها المجتمع البشرى القديم ، ردحاً من الزمن — قل أو كثر — خافية على كثير ممن يعالجون البحوث الاجتماعية حتى كشف عنها بعض كبار الباحثين ممن درسوا المجتمع القديم دراسة مكنتهم من إدراكها إدراكاً قد يكون تاماً أو لا يكون ، بيد أن وقفوا على خصائص الحياة

ورب معترض يقول : إن الدافع الحقيقى الذى حجز (مؤنس) عن معاودة حياته العاطفية مع (حسنية) هى أعماله بالريف وشواغله الملحة فيه . وهنا حق من ناحية أن هذه الأعمال وتلك المشاغل إنما هى من عناصر (الحاضر) ، والحاضر ، كما قررنا ، يفرض سلطانه علينا . بيد أن هذا ليس كل شيء ، لأن الظروف المحيطة بمؤنس وحسنية — كما رسمها المؤلف — كانت ظروفاً مواتية تسمح لهما باستئناف علاقتهما دون أن يخل ذلك بشواغلهما ، ولكن بشرط . . . وهذا الشرط أن يكون لاعج العاطفة المتأجج فى قلبيهما متقداً قوياً كما هو المشاهد المألوف لدى الأكثرين ، لأن الإنسان يحيا بغرائزه وعواطفه أكثر مما يحيا بعقله ومنطقه ، وفى تلك الفترات التى يكون فيها الإنسان لحياة العاطفة لا يبالى بأى قيد من القيود . ولكن العاطفة القوية أو الحب المتقد لم يكن يعمر قلبي مؤنس وحسنية عند لقائهما الأخير . لقد كان الأمر غير ذلك فيما مضى ، ولكن الزمن أطفأ اللاعج المتقد وأوهن القوى النابض ، ولم يبق فى قلب كل منهما من ذلك الغرام غير هيكل من عظام نخرة ترتدى مسوح (فينوس) تكفى أن تهزها اليد لتنهار .

زكى طليمات

الاجتماعية التي سادت ذلك المجتمع ، وبعد أن تفهموا المقومات الاجتماعية الجديدة . وما زال الباحثون الاجتماعيون من ذوى الاختصاص يسبرون غور هذه الحياة وهذه المقومات الاجتماعية بعد ما درست آثارها ، وعفت رسومها أو كادت ، فراضوا صعابها وجلوا شكوكها إلى أن وقفوا على عناصرها وعواملها، وكشفوا عن أسرارها وخبيآتها ؛ وهم إلى ذلك – أى الباحثون – يؤمنون بأن القدامى من أفراد المجتمع كانت لهم من الآراء الخطيرة، والتفكير القيم ، والتقدير الجزيل ، ما حملهم على إلقاء التبعة لا على عاتق كل فرد من أفراد المجتمع فحسب ، بل على كل الكائنات الحية من حيوان وجماد أيضاً

* * *

بدأ علماء الاجتماع ، فى العصر الحاضر ، يدرسون المبادىء التى من شأنها أن تحدد كل عمل يقوم به الفرد فى مجتمعه وما يتبعه من عقوبة وقصاص على ضوء علم النفس الحديث ، وعلم الأمراض النفسية Cycopathologie بعد أن كان المجتمع القديم يقيم حدها على كل فرد من أفراده، دون أن ينظر إلى نفسية هذا الفرد وإلى الأمراض المتصلة بها التى تتناوره إبان حياته ، بل كان مآل نظم المجتمع القديم فرض العقوبة على أى امرىء ارتكب جرماً أو اقترف إثماً

والتبعة ليست ، فى الواقع ، إلا نتيجة لعمل اجتماعى ، شرعياً كان أو غير شرعى ، يخالف ما تعارف عليه المجتمع وما ألفه الناس ، أو بعبارة أخرى نتيجة أعمال وأفعال اجتماعية يقوم بها أفراد المجتمع تتعارض مع القوانين أو النظم الموضوعة التى تستوجب التبعة ، فإذا ما خرق امرؤ حرمة الآداب والأخلاق ، أو نكث عهداً من العهود الاجتماعية ، أو اتهم برقة فى دينه أو وطنيته ، أو احتفظ بعلاقة غير شرعية مع فتاة ، كان ذلك كافياً ، فى نظر المجتمع ، لأن يحمل تبعة عمله وأن يعد مسئولاً

ولا بد للمرء أن يتساءل عن الأعمال التى قد ترضى الجماعات الإنسانية أو تغضبها إذا ما قام بها ، ولا بد له من أن يفقه التقاليد والعادات التى تدنيه من المجتمع أو تبعده عنه ، كى يستبين طريقه على ضوئها ، ويمشى حسب نظم المجتمع لئلا يقحم نفسه فى مآخذ عنيفة ومزالق خطرة تستوجب التبعة والعقوبة

وماذا يعنى بالتبعة ؟... هى قيام امرىء بعمل ما، فى مجتمعه أو فى مجتمع آخر ، فى حالتى النفع والضرر . فالمرء الذى يقدم على أعمال من شأنها تحدى النظم القائمة وخرقها والتى قد يتضرر منها المجتمع الإنسانى يكون مسئولاً عن أعماله هذه، كما أن المرء الذى ينشط إلى المحافظة على الآداب والأخلاق ، والذى يلذ له خدمة الأمة والإخلاص لها والتفانى فيها يكون مسئولاً عن هذا العمل أيضاً . فالتبعة إذاً تقع على عاتق المرء فى الحالتين المتقدمتين وإن اتجه كل منهما اتجاهاً يختلف والآخر جد الاختلاف من حيث الوسيلة والغاية ؛ وإذا ما أبدلنا العقوبة بالمكافأة واللوم بالثناء ، فمن هو الذى يستحق العقوبة واللوم ، ومن هو الجدير بالمكافأة والثناء ؟ ... مما لا مشاحنة فيه إن الإنسان يكافأ على عمله إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ...

ألا ترى أن الأب يكافئ ابنه الأديب الوديع ويعاقب الطائش الشرير ؟ ... وكذلك المربى ؛ ألا تراه يثنى الثناء العاطر على الطالب الخلوق المطيع ، وينحى باللائمة على النفور المتمرد ؟ ! والحكومة ، ألا تشعر أنها تكافئ رجالها المخلصين والعاملين بالأوسمة والرتب ، وتعاقب المجرمين والخائنين بالسجن والإبعاد والقتل أحياناً ؟ ... ألا ترى أن الجماعة البشرية قد أعدت جوائز قيمة ، أدبية ومادية ، للأفراد الذين يحملهم الإخلاص ويدفعهم الوفاء على التفكير بترقية المجتمع وتخفيف الآلام عن الإنسان ، ورفع مستوى الحياة الاجتماعية ؟ أليس كل ذلك يدخل فى حدود التبعة الاجتماعية على اختلاف شكولها وتباين غاياتها ؟ ! على أن العلماء لم يقصدوا بالتبعة إلى المعنى الذى ذهبنا إليه ، ولم يتجهوا الاتجاه الذى أخذنا به ، ولكن هى الحقيقة وهو الواقع ! ولمَ لا يكون المرء مسؤولاً عما قام به من صالح الأعمال كما يكون مسؤولاً عما جنته يداه من إثم أو جريمة ؟ ! وما التبعة فى الواقع إلا صدى تلك الحياة الاجتماعية التى ارتضاها الإنسان لنفسه ، وتلك البيئات التى تكتنفها التقاليد والعادات ...

ومن هو المسئول – فى الدرجة الأولى – فى نظر المجتمع

لقد أعطت الجماعات الإنسانية أجوبة تختلف باختلاف حياتها الاجتماعية وبيئتها وثقافتها ، وتتباين بتباين أخلاقها وتقاليدها وعاداتها . على أنها حمّلت الإنسان — منذ الأزمنة القديمة — التبعة ، باعتباره أرقى المخلوقات الحية وأشرفها وأذكاها ، وأقربها من المدنية والحضارة ، حيث يقوم بدوره الرئيسي في المجتمع ، إذ أنه يتمتع بعقلية نيرة تدفعه إلى استخدام الحيوان لشؤونه اليومية والماشية والاستفادة من النبات والجماد لمنافعه الشخصية والبيتية التي تتطلبها حياته الاجتماعية . وهو — فوق ذلك — يملك من الأهلية والاستعداد ما يجعله يحمل تبعة ما يقوم به من عمل . لذا نجد الإنسان شاعراً بالتبعة ورازحاً تحت ثقلها منذ اليوم الذي قتل فيه قابيل أخاه هابيل

ولا يمكن الأخذ بالتبعة أو الإقرار بها إلا في حالة خاصة ، بمعنى أن الإنسان إن لم يتمتع بعقل سليم وتفكير صحيح فلا جناح عليه بما يأتيه من عمل شائن أو فعل قبيح ؛ لأن سلامة العقل وصحة التفكير شرط أساسي — في بعض المجتمعات — لإلقاء التبعة وتحمل العقوبة ، وإن أقرّ البعض هذه التبعة على من لم تتوفر فيه هذه السلامة والصحة ، حتى أن بعضهم ذهب إلى إلقاء التبعة على الطفل والمجنون والأبله والمعتوه أيضاً ... وتمادت المجتمعات القديمة ، والحديثة المتأخرة ، فذهبت إلى أبعد من هذا الحد ، إذ ألقت التبعة على الحيوان والجماد ! !

وقد تتعدى هذه التبعة من شخص إلى آخر وإن لم يجمعهما نسب أو قرابة ، وتتجاوز الفرد إلى الجماعة ، وإن لم تكن بينهما صلة أو علاقة ، وتعرف حينئذ بتبعة الجماعة ، لكنها تبقى — في غالب الأوقات — تبعة غير محدودة Respousabilité indeterminée . بيد أن الجماعة التي تتحمل التبعة تكون ذات صلة مباشرة أو غير مباشرة — ولو إلى حد ما — بصاحب الجريمة أو الإثم ، باعتبار أن أفرادها وحدة لا تتجزأ ، وباعتبار أن للمتهم فرد منها ، فالجريمة التي يؤخذ بها هذا المتهم تؤخذ بها الجماعة ، والتبعة التي يحملها تشاركه الجماعة فيها ، والعقوبة التي تفرض عليه تنالها أيضاً على حد سواء ؛ وتبعة الجماعة أيضا تكون في الجماعات التي تعيش قبائل منفصلة الواحدة عن الأخرى ، وفي المجتمع القديم الذي ينهج نظام الطوطمية Totemisme ، والجماعات التي يرأسها شيخ هو أكبر أفرادها سناً Pater Familias ومن هذه الجماعات ظهرت أول مبادئ تبعة الجماعة التي تتعدى أقرب الناس إلى أبعدهم عن المتهم

وهنالك أيضاً بعض الجماعات ممن يقرون مبدأ التبعة الفردية في جرائم خاصة ، ومبدأ تبعة الجماعة في جرائم أخرى ؛ ففي حالة الجرائم الصغرى كالسرقة أو القتل ، إنما تكون التبعة فردية ، وتكون جماعة في حالة الجرائم الكبرى كالخيانة الوطنية وخرق حرمة الدين ، والثورة على الحكومة وقتل الملك وغيرها ... ففي هذه الحالة تسود التبعة جميع أفراد عائلة المتهم دون النظر إلى تفاوت درجة القرابة والأعمار بينهم ؛ فالجد والأب والأعمام والأولاد والحفدة يساقون إلى منصة الإعدام كالمجرم على حد سواء ؛ أما أقرباؤه الأدنون ، فيعاملون معاملة العبيد ويصبحون أرقاء ، توزعهم الحكومة على قادة الجند بمثابة رهائن ، ينقطعون للعمل ، ويحبسون على الخدمة ، وتصادر أملاكهم ، وتحجز أموالهم ، كما صودرت وحجزت أملاك أولئك من قبل

كذلك كان عدم الوفاء لصاحب الجلالة ، أو عصيان أوامره المقدسة ، يسبب للفرد عقوبة تذهب بحياته ، وتودي بأسرته إلى العذاب البئيس ، وتهوي بهم إلى أدنى درجات الاسترقاق والعبودية ؛ أما هو ، فيعدم ويحرق ، وأما زوجه وأولاده ، فيصبحون أرقاء ؛ أما أبواه وجداه وإخوته وأولاد أخيه ، فينفون من الأرض إلى أمد بعيد

وهكذا نجد أن هذه العقوبة العنيفة التي تعرّض صاحبها وأسرته ومن يلوذ به إلى الموت ، والتي تجعل من ذوي قرابته عبيداً أرقاء ، لم تستأثر بها أمة دون أخرى ، بل اشتركت أكثر الأمم فيها مع اختلاف العقوبة من حيث العنف والقسوة باختلاف شرائعها وقوانينها . ففي فرنسا مثلاً — أيام قيام الملكية في ربوعها — كانت عقوبة النبيل والشريف الذي يرتكب أية هفوة في حق الملك أو الامبراطور، هي تجريده من رتبه العسكرية ، وإزال درجته النبيلة ، وإبعاده مع أسرته خارج المملكة ، أو الامبراطورية ، مع حرمانه هو وأسرته من العودة ثانية إلى بلاده ووطنه حرماناً قد يكون أبدياً ؛ وإن قدر له أن يعود دون عفو خاص من صاحب الجلالة ، فإنه يعدم حالاً دون أية محاكمة

أو أى تحقيق ؛ أما إذا لم يكن نبيلاً ، وكان ينتسب إلى عامة الشعب ، فعقوبته كما يقول الأستاذ Jousse : تماثل عقوبة الشريف فضلاً عن هدم منزله وإعفاء أثره . وإذا تعمق الباحث فى درس هذه التبعة ، ردّ دواعيها ومسبباتها إلى ذلك الاعتقاد السائد — قديماً وحديثاً — أن صاحب الجلالة هو خليفة الله فى أرضه ، فلذلك كان لهذا الاعتقاد من الأثر القوى فى نفسية الشعوب والأمم ما جعلها تشرع هذه العقوبة العنيفة لحفظ خليفة الله من الاغتيال وحرصاً على شخصيته المقدسة

والأمة العربية لم تعرف فى سالف عهدها التبعة الفردية بل كانت آخذة تبعة الجماعة باعتبار أنها ترى نفسها قائمة على التكتل وعلى المبادئ القبلية وإفناء الفرد إفناء كلياً فى المجموع . وكم من حرب ظل ضرمها يحتدم بين قبيلة وقبيلة لجريمة ارتكبها أحد أفراد هاتين القبيلتين ! . . . وكم من تضحية فرضت على فرد لم يقترف إثماً ... ! أو على أفراد قبيلة لم يجنوا جريرة أو ذنباً ! . لقد كان رأس القبيلة هو المسئول الأول والمباشر عن عمل كل فرد من أفراد جماعته ، كما أن القبيلة بأجمعها مسئولة عن هذا العمل أيضاً ... وجاء الإسلام بالشريعة السماوية المصححة ، فمحا تبعة الجماعة وأقر تبعة الفرد ورسم حدودها وأمسى الفرد مسئولاً عن عمله دون غيره مهما ترادفت آثامه وتعددت جرائمه ، ولا تزروا وازرة وزر أخرى . . .

إلا أن العرب عرفوا ، قبل الإسلام ، نوعاً من التبعة الفردية ، فى حدود ضيقة محدودة ، كانت قائمة ما قام « نظام الخليع » على معنى أن القبيلة كانت تكره فى بعض الأحايين على مجازاة أحد أفرادها لخصال وخلال لا تقره عليها أو تتنافى مع بيئتها وأخلاقها — فتخلعه من ذمتها وتبعده عنها وتقطع صلته بها ؛ فالمرء الذى تلفظه القبيلة يتحمل هو وحده تبعة عمله وليس لقبيلته أن تتحمل شيئاً من هذه التبعة كما أنها لا تطالب بدمه إذا أهدر .

إن هذه الظواهر الاجتماعية ، فى صدد تبعة الجماعة ليست فى الواقع ، إلا صدى تلك الحياة الاجتماعية الضيقة وصدى ذلك النظام الاجتماعى الضعيف . وكثيراً ما كانت هذه التبعة جد عنيفة وقاسية ينوء الفرد بحملها ويرزح تحت ثقلها

لقد تقلص ظل هذه التبعة عن الإنسان فى مجتمعنا الحاضر وعفت رسومها وامحى أثرها إلا عند الجماعات المتخلفة عن المدنية والحضارة واتجه إلى التبعية الفردية إذ أصبح الإنسان مسئولاً عما يرتكبه من آثام وجرائم ، ولا شأن لأسرته وذوى قرابته فيما يرتكبه من إثم وجريمة ، وإن كان بعض الأمم التى بلغت أقصى درجات المدنية والحضارة ، وأسمى مراتب الرقى والتمدن ، تأخذ بها أحياناً فى حالات خاصة إبان الحروب والثورات .

[البقية فى العدد القادم] — بيروت رافت النبى

الرســـالة فى ســـنتها العـــاشرة

على الرغم من استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف ، ستستمر الرسالة على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والاهداء ، مع المشتركين القدماء . أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملا مقسطا أو غير مقسط . ومن المقرر أن المشتركين القدماء لن يتمتعوا بمزايا الاشتراك المخفض إلا إذا بدأوا اشتراكهم من ديسمبر إلى آخر يناير ١٩٤٢

ولن يمد الأجل بعـــد ذلك

من الأدب الروسي

أنطون تشيكوف
الكاتب الروسي العالمي

[من كتاب « رجال القصة الروسية الحديثة » لسيرج برسي]

للأستاذ خليل هنداوي

من عادة الناس القول : « بأن الإنسان لا يحتاج إلا إلى مترين من الأرض، لكن هذه الحاجة هي حاجة الجثة الهامدة، لا حاجة الإنسان الحي الذي لا يكفيه إلا هذا الفضاء. لا يطلب الانسان من الأرض قيد أقدام، ولا يطلب مسكناً، وإنما يطلب الأرض بأسرها، والطبيعة بجمتها، لكي تتفتح على آفاقها كل خصائصه ومزاياه بحريته ؟ »

هذا ما قاله — تشيكوف — عن أبحاثه ورسالته حين دخل الحياة الأدبية. ولد سنة ١٨٦٠، وبعد أن أنجز دراسته في جامعة بلده أتم دراسة الطب في موسكو حتى غدا طبيباً مشهوراً، لكنه أخذ يسأم هذه الحياة العملية، ويستهويه عامل الأدب. فنشر عدة أقاصيص في بعض الصحف، وكان يؤجر عليها، لأن موارده في العيش كانت ضئيلة. وقد جمت قصصه الأولى ولم تكن مما تبعث على الرضا، لأنها قصص كتبت لاجتذاب القراء وتسليتهم في أوقات فراغهم، دون أن تنطوي على فلسفة معينة، أو غاية معلومة. لكن الكاتب سرعان ما تبلورت نفسه، واتسعت آفاق عقله، فترك ذلك الجو الصبياني، ودخل في جو ملؤه دراسة الإنسانية، وهذه الدراسة طوقت روحه بالحزن والكآبة. أضف إلى ذلك أن بلده كان يكابد عناء الحروب في الحرب الروسية التركية، هذه الحرب التي كان غنمها تحرير بلغاريا مذ أوحت إلى الروس أنفسهم بإدراك حريتهم وأثارت في الشباب العزم للعمل على الوصول إلى هذه الحرية مهما بلغ الثمن وأرهقت المقادير. لكن هذا الأمل تحطم، وهذه الجهود ذهبت عبثاً، لأن الرجعية قد ظفرت، وبظفرها طارت الأحلام، فمرا النفوس شيء من الذهول أو التخدير،

ومن كان في قمة العزيمة والأمل جاء انتكاسه عظيما، ووشكان ما دب في هذه القلوب النشيطة دبيب اليأس والعجز، فمن القلوب من لاذ بالعزلة لوحده كأنه لا يريد أن يبدي جراحه، ومنها من اعتصم بالعمل ليذهل، ومنها من ظل يرسل الأنين تلو الأنين لعله يشفى. وهكذا يقال إن ضباباً رمادياً أحاط بحياة القوم، حاملاً معه الكآبة. هذه هي المشاهد التي وقف عليها — تشيكوف — براعته، ولم تنتج روسيا مثله كاتباً استطاع أن يصور لنا اضطرابات هذه الفئة من الناس التي كانت تمشي خابطة على وجهها بدون فجر ولا رجاء.

يقول أحد أبطاله مفسراً الأزمة الخلقية : « ليس لي من العمر إلا ست وعشرون، ولكن أراني لا أجهل أن الوجود يمشي بلا غاية، خالياً من أي غرض، وكل شيء فيه باطل زائل. تتشابه فيه حياة ساكن جزيرة « سخالين » مع حياة ساكن « بنس » ؛ والفرق بين دماغ « كانت » ودماغ ذبابة ما ليس له قيمة حقيقية، وأن لا شخص في هذا الكون على ضلال ولا على صواب »

وفكرة — العدمية — بكل ظواهرها الروّعة تنعكس كثيراً ما في آثار تشيكوف، وأقصوصة « القبلة » ليست إلا وجهاً من هذه الظواهر. فالمريف « ريابوفيت » بتأثير قبلة غير مقصودة لبث يحلم بالحب طوال صيف ؛ فهو ينتظر متألماً ساعة العودة ليرى جبيلته المجهولة، لكن حلمه لم يكن إلا وهماً، إذ لم يكن هنالك أحد ينتظره. وبينما كان في أصيل يوم يسرح على ضفة جدول استسلم لتأملات تنفجر من قلبه : « الماء يفر إلى حيث لا يعلم أحد، ولا لماذا. إنه يفر على الحالة التي مرّ بها في أيار الغابر. إنه عبر من الجدول إلى النهر الكبير، ومن النهر الكبير إلى البحر، ثم إنه تبخّر واستطار، ثم استحال مطراً. فهل أرى ذات الماء يركض جديداً على مرأى من عيني ؟! ما غاية ذلك ولماذا ؟! وهكذا أصبحت الحياة عند هذا المريف لغزاً معمى لا يدركه العقل، تمشي على غير غاية، هائمة بدون قرار

وقد أعطانا تشيكوف نماذج عدة لأفراد انتقاهم من بيئات مختلفة ؛ فكأنما يأخذ القارئ بيده، يقوده إلى أي مكان يستطيع أن يعرض عليه فيه صوراً من المجتمع الروسي الحديث :

فى الحقل أو المصنع أو الطريق . وهو بعد ذلك لا يستقر فى موقف ، ومهما كانت المواطن التى يرتادها القارئ وراء آثاره لا يخرج منها إلا مشبعاً بهذه العزلة الروسية المؤلمة

يقدم لنا تشيكوف مثلاً للحبة الضالة فى كثير الأحلام ، يمنع رأسه حيث تطلع عليه منه أية فكرة جديدة . قد بحث عبثاً طوال حياته عن شكل عملى يلائم مثله الأعلى الذى يراه ، والآن تركه القدر أباً أو ترك له ابنة تكرهه على كسب قوتها وقوته ، هو يحب ابنته ، ولا يفتأ يردد اللوم لها على كثير من العيوب فى حياتها القلقة . فى أمسية ساهرة ، وجدت امرأة أيم — هذه الفتاة العابسة الشاردة ، فأخذت تعزيها بكلمات لطيفة ، وفى هذه الساعة تحدث الأيمان وشكا كلاهما للآخر ما عنده ، وأذاع الرجل عليها قصة حياته كلها ، وما ساقه إليه القدر ، فاهتمت بحديثه اهتماماً شديداً وأقبل عليها بقلبه وعاطفته . حتى ليظن الناظر أن القدر لم يجمع بينهما باطلاً ، وإنما لأمر يريده فى الجمع بينهما ، وفى الغد ركبت المرأة العجلة ، وكان يساعدها على الركوب ، وإن الآذان لتنتظر منهما الكلمة التى يجب أن تجمع ما بينهما ، ولكن لم يقل واحد هذه الكلمة . انطلقت العجلة ولبث الرجل جامداً كالتمثال . ينظر بعاطفة فيها فرح وألم إلى الطريق الممهدة التى توارت عليها السعادة التى فرت من بين يديه منذ قليل

وقصة « الفارة » تقدم لنا مثلاً لعاطفة الخوف الحادة التى تنزو بغتة نفس فتى متكبر اصطدم ببعض الحقائق . فالطالب « فاسيليف » وهو ذو طبيعة حادة دخل للمرة الأولى بيت الهوى ولكنه لم يستطع أن يتحمل التأثيرات المرهقة التى كان يكابدها ؛ وغزت رأسه أفكار مظلمة أحاطت به من كل مكان . فكان يصيح آخذاً برأسه : « أحياء ... أحياء ... لو حطمت هذا المصباح لوجدتم أنى هذا شراً ، ولكن — هنالك — ليست المصابيح هى التى تحطم ، ولكن حيوات الخلائق البشرية . . . أحياء » ثم أخذ يفكر فى وسائل استنقاذ هؤلاء المنكوبات ، ويبدو له أن يجلس على قارعة الطريق مخاطباً كل عابر : « إلى أين تمضى ؟ ولماذا ؟ إخش الله ! » لكن هذه الفكرة سرعان ما غلب عليها الألم والريبة من نفسه ، وزاد عليه الألم حتى سحق قلبه ، ولكن فتيان مجتمعه لم يتألموا من أجله ، وإنما كانوا يسعون غير ملتفتين إليه . فأحس الطالب أن عقله يفلت منه . فهدءوه حتى إذا ما شفى مما هو فيه ذكر عواطفه الأولى ، وخجل منها ، وهكذا حطم مذهبه ، وخنق حلمه

فى الأوساط الاجتماعية ، وصوامع العمال يكاد الإنسان يبدو أكثر ابتعاداً عن الأثواب المطلية والمظاهر الكاذبة . فإن المكافحة المتواصلة ضد الفقر لم تترك فرصة لتيرها . الحياة قاسية تحطم بلا رأفة أحلام السعادة ، ولا تدع للانسان — على الأغلب — رفيقاً يقاسمه أثقال الهموم والرزايا حتى الصغير منها . وقصة السائق تعطينا مثلاً لهذه العزلة ، هذا السائق المعدم فقد ولده فلم يأنس فى نفسه القدرة على احتمال هذه المصيبة . ووجد فيها ما يدفعه إلى أن يحدث الناس بها . ولكنه كان يبحث عبثاً عمن يستمع إليه . وفى يوم من أيام عمله ألفى نفسه وحيداً مع فرسه فناجاها : « نعم يا فرسى الصغيرة ! إنه مات ولدى الحبيب ، وتوارى سريعاً من دون ولة . لنفرض أن لك مهراً ، وهذا المهر مات على حين غرة ، ألا يؤلمك فقده ؟ » أما الفرس فقد رنت إليه بعينين هادئتين لامعتين ، ونفخت من أنفاسها بين يدى صاحبها الذى أعجز قصة موت ولده

ولتشيكوف قصص رائعة وقفها على وصف الحياة القروية التى تشبه من وجوه عدة حياتنا القروية . ومن ذلك « القرويون » . فنيقولا خادم فى أحد فنادق « موسكو » ساوره داء عياء ووجد نفسه مضطراً إلى مغادرة عمله . وكان كل ما يقتصده يذهب إلى أيدى الأطباء والصيادلة . وعند ما يئس من شفائه قرر أن يعود إلى قريته حيث أهله وأخوته ، لأنه يؤثر إذا فاتته الحياة أن يموت على مرأى من أهله . لقد ترك القرية حين كان فتى ثم لم تقع عليها أنظاره بعد ذلك . عاد هو وزوجه وابنته ، فوجد أباه وأمه وأخوين له مع أزواجهما وأولادهما فى هوان وفاقة ، وألفى أن الأسرة كلها تأوى إلى زريبة مظلمة قذرة يرن فى أجوائها الذباب ؛ فأدرك أن بقاءه فى موسكو كان الأجدر به ، ولكن هذا أمل خاوع لأنه لا يملك أجر العودة . إذن يجب البقاء فى هذا اللحد الذى اختاره . وهكذا استقبلتهما هو وزوجه حياة كلها تعب ونكد وشقاء ليس فيها إلا النزاع والصفع والمواثب بدون نهاية . إنه يريد أن يعود ، لأنه مل هذا الوجود ، ولكن أنى له

المال ؟ فزادت صحته سوءاً على سوء ؛ فوعده صاحب قديم بشفائه ، فقام بجملة تجاريب كانت القاضية عليه . وقضت زوجه من بعده شتاءها في القرية مع ابنتها . فأسرع دبيب الهم بخطوط الكهولة إلى وجهها الذي كان يحار فيه ماء الشباب ، ومالت قامتها ، وتبدلت حالتها . ومن ذا الذي يبقى على الهم ؟ أقبل الربيع والأم وابنتها تدخلان الكنيسة ثم تزوران ضريح فقيدهما، ثم تطوفان سائلتين في الطرق ! وتشيكوف نفسه يقول : « إن حياة عمالنا هي سوداء تمشي في طريق الفسق ، أما حياة الشعب : عماله وفلاحيه ، فما هي إلا ليل مدلهم ماؤه الجهل والفقر والإثم »

* * *

إن تشيكوف ببراعته الفائقة، ونظراته الشخصية، يصف الحياة الإيجابية والسلبية ؛ وهو ليس بذي طبيعة هجائية ، لأن كتابته يشمرها العطف العميق . وهو لا يسخر من أبطاله ، وإنما يشفق عليهم . عبقريته هادئة، مفكرة، عميقة، ولكن يخيل أحياناً أن هذا الهدوء ليس إلا قناعاً . وقد قال ناقد فيه : « إنه قلم ذو حنان » وهو في قصصه ينبوع فياض ، لا ينفذ له موضوع ، ولا يتترك له تحليل برغم بساطته . وهو لا يعنى بالأسهاب الكثير ، والاستطراد البعيد ، لأنه يكفيه أن يطرق الجانب الحي من الموضوع .

جرب تشيكوف الكتابة المسرحية ، وله منها القوى المتين ، ومن ذلك مسرحية « الأخوات الثلاث » . هؤلاء كن يقضين حياتهن في بلدة حقيرة تبعث على السأم ، خالية من الرجال اللامعين ، وليس فيها إلا من تشابهت وجوههم ، وتشاكلت نفوسهم، كأنهم نسخة واحدة تكررت نسخاً . وكان حلم هؤلاء السفر إلى موسكو ، لكن بلادتهن قضت عليهن بالبقاء ؛ فلبثن يتناقشن ويتجادلن متفلسفات في مواضيعهن . وقد اتفق أن نزل المدينة ثلة من الجند ، فماجت فيهن الحياة ، وكان لهن حوادث حب مع الرؤساء دامت حتى يوم الرحيل .

قالت الكبرى : إنهم رحلوا ... سنبقى وحدنا ! والحياة الماكثة ستبدأ .

قالت الثانية : إنما يجب العمل ، لا شيء يعزينا إلا العمل !

وقالت الثالثة معانقة أختيها في حين راحت الموسيقى العسكرية تعزف لحن الرحيل : يا أختيّ ! إن حياتنا لم تنته بعدُ إننا سنحيا .

هذه الموسيقى تصدح طربة ... رويداً رويداً ! إنني أحس به ... سنعلم غداً لماذا نحيا ولماذا نتألم !

هذه ناحية قوية من نواحي فلسفة تشيكوف البسيطة ، وهي بمجموعها تنم عن (عجز عن الحياة مشوب بأمل مبهم ...)

* * *

إن تشيكوف في الحقيقة منحة الأدب الروسي ، وغرسة لم تتعهدها إلا تربة عرقه . ففي نزوعه إلى الحرية ترن ألحان تولستوى ؛ وفي ميله إلى شراء الماضي بالألم يلوح وجه « دوستوفسكي » كأنما آثار كبار الروس تتبين خلال سطوره .

ويشبه تشيكوف من نواح عدة « موباسان » و « إبسن » لكنه لا غموض ولا إبهام فيه ، لأن الغموض النرويجي لا يلائم روح الأدب الروسي الذي ينزع إلى مجابهة المسائل الملونة في الحياة مجابهة صريحة عنيدة . ولقد حار في تحديد قيمته النقاد فمنهم من وصفه بأنه كاتب « خلي » لأن كتابته لا تدعو إلى الثورة التي برزت في بعض آثار غيره ، ومنهم من وجد فيه متشائماً لا يتفاءل في شيء من الحياة الروسية ، لأنه ملتفت إلى وصف الآلام أو الجهود النازعة إلى طلب حياة تكون أحسن أثاثاً ورئياً .

ولعل في الرجوع إلى بعض سطور له ما يفيدنا في توضيح صفات هذه الشخصية الفذة ، ومما يقوله : « إنني أخاف أولئك الذين يفتشون عن ميول ورغبات خفية بين السطور ، وأولئك الذين يريدون أن يجدوا فيّ محرراً أو محافظاً ... إنني لست من ذلك في شيء ... لست بالمحرر ولا بالمحافظ ، ولا بالراهب ولا بالخلي ، وإنما أنا رجل أمقت الكذب والصولة في أي مكان وتحت أي مظهر ... لا أريد أن أكون إلا فناناً ... وهذا كل شيء » ولكن هذا الفنان الحر الذي أبغض الكذب والصولة في المعنى الذي تفهمهما لم يستطع أن يكون إلا محرراً للانسان بأوسع معنى للتحرير ، ولم يكن بذلك المتشائم الذي تغلوه ، لكنه كان كاتباً يتألم لمثله الأعلى ، ويوقظ بكتاباته الأمل في الخروج من عمق الحياة التي وصفها . وقد تبدى في بعض مراحله أنه مؤمن بمستقبل الإنسان والإنسانية ، فيقول في محاورة له لبستانيه : « أتعلم بعد جيلين أو ثلاثة أن الأرض ستصبح بستاناً زاهراً .

وإذ ذاك كم تغدو الحياة جميلة ! » وهو الذى يقول بأن الإنسان قوة الأرض المركزية « وينبغى للانسان أن يعلم أنه أسمى من كل ما فى الطبيعة ... إننا أكوان سامية عظيمة ؛ وحين يتسنى لنا أن نصرف كل قوى العبقرية البشرية نغدو قرناء الآلهة »

لـكن هذه الآمال الـكبرى لم تحل بينه وبين وصف عجز الإنسان فى كل زمان ومكان ، فهل تأتى ذلك منه بطريق المناقضة ؟ نقول : لا ، لأن تشيكوف إذا لم يشك لحظة فى تقدم الانسانية فانه ليتألم ، ويبعثه على الألم تشاؤمه الأسمى النزاع إلى السمو ؛ هذا التشاؤم الإنسانى تجاه ما يخور العقل أمامه عجزاً ، وهذه العاطفة تتألم وتيأس إزاء خبط الحياة وعصف الموت

يقول أحد أبطاله : « إنى إذاً ما خشيت الحياة ولم أفهمها ، فعندما أرقد على بساط من الأعشاب . وأتأمل طويلاً فى حشرة ولدت فى مطلع الليل ، لأتفهم شيئاً من وجودها . يخيل إلى أن حياتها ليست إلا سرحلة من الرعب والذعر ، فيها أرى نفسى ، وأتمثل خاطراتى ... كل شىء يروعنى لأنى لا أفهم العقل ولا نهاية الأشياء . لا أفهم شيئاً ، ولا أدرك أحداً . . . أما أنت فاذا كنت تفهم فأحر بى أن أمقتك ... »

و « حين ينظر الإنسان طويلاً فى السماء الزرقاء المترامية ، فالأفكار المتبهشة والنفس تتحد اتحاداً خفياً فى عاطفة عزلة عميقة ، وخلال لحظة واحدة يشعر الفكر بوحدة الموت ولغز الحياة اليائسة المروعة »

إن هذا اليأس الشامل ، وهذا الشقاء الذى تحدث عنه تشيكوف يتمثلان فى آثار كل الشعراء والفنانين الروس البارزين . ومن منهم لم يرسم الحياة بهذه الخطوط المجسدة ، ولم يحمل فؤادها مضموراً بهذا اليأس !

على أن تشيكوف ـ بما أوتى ـ رأى وأدرك وجهى الحياة : وجه تقدمها التاريخى والاجتماعى ، ووجهها الآخر الذى يحيط بها من كل ناحية : هـذا الوجه المظلم المجهول النائم تحت أنفاس الموت الباردة

« حلب » خليل هنداوى

فى أول العام الهجرى

تصدر الأنصار فى حجم أكبر ومادة أوفر

الاشـتراك السنوى : ٢٠ صـ وللمعلم الالزامى والطالب ١٥ صـ

المـكاتبات بعنوان : « الأنصار » شارع البستان رقم ٢٤

في المخبأ ...

للأستاذ محمد محمود دوارة

عشنا لنرى ما لم يكن يخطر لنا على بال . واضطرتنا حوادث الأيام إلى أن نأتي أعمالاً لو أنا أتيناها قبل اليوم لنسب إلينا الجنون المطبق ! ...

انقلبت جميع الأوضاع رأساً على عقب .

كان الظلام مبعث الرهبة والخوف ، فأمسى هو الملجأ منهما

كان المنزل هو المكان الذي يتوفر فيه أمن المرء وطمأنينته فأصبح الملاذ كل الملاذ في البقاء بالمنزل .

كانت الشجاعة في الثبات أمام الأخطار والمكاره ومجابهتها وجهاً لوجه فإذا هي في الفرار والهرب .

كان النهار معاشاً والليل لباساً فإذا النهار غير معاش والليل هلاك .

كان القمر فتنة الكون في لياليه الباهرة ، وكان نجوى الشاعر والعاشق والفنان ، فإذا هو علامة من علامات الشر ، ونذيرٌ من نذر العطر والخراب .

فسبحان الذي يغير ولا يتغير ...

* * *

بعد منتصف الليل والكون غارق في بحار الكرى تدوى في الفضاء فجأة أصوات منكرة متقطعة متكررة لا عهد لنا بها من قبل ، فكأنما قد نفخ في الصور ، وجاء يوم البعث والنشور .

يثب المستدفئ من فراشه الوثير وكان لو خير بين تركه أو خسارة نصف ماله لضحى بالمال غير متردد في الاختيار .

وتغص الشوارع في تلك الساعة التي اعتادت فيها الفراغ إلا من متسكع لا مأوى له ، أو حارس تعلم بالتجربة كيف ينام وهو واقف ، أو مسرف جعل من ليله نهاراً .

رجال ونساء وصبية وأطفال كلهم متزعزع مضطرب . كلهم صامت كأن لم يخلق له لسان ولا شفتان ، وكلهم سريع الخطى لا فرق بين هرم وشاب ، ولا بين عجوز وفتاة في عنفوان الصبا والشباب .

قف في تلك الساعة وتأمل من الناس ...

هذه جارتي الحسناء التي اعتادت أن تقف أمام المرآة نصف النهار لتخرج إلى الناس فتنة وسحراً لا يقاومان ، ها هي قد خرجت تهرول بوجهها الذي خلقه الله . لم تمكنها المفاجأة ولم يمكنها الخوف من الكذب على عباد الله .

وهذا جاري الذي لم أكن أراه ولم يكن يراه الناس إلا منتفخ الأوداج مصعر الخد متبختراً يمشي الهوينى كأنه الهودج أو الديك الرومي ، ها هو الآخر يهرول في مشيته ضارباً بأصول العظمة والكبر ومشية الحكام عرض الحائط

وهذا الرجل الذي قطع حبل السكون بضراعته إلى الله تعالى وبدعوة رسله وأنبيائه وأوليائه ، هل رأيته في الصباح وسمعته وهو يسب الأديان جميعاً لسبب من أتفه الأسباب ؟

ما أروع الفرق بين الليل والنهار في هذه الأيام !

وما أقرب المسافة بين إيمان الإنسان وكفره ، وبين أمنه وخوفه وبين هداه وضلاله !

وفي المخبأ في كل ليلة من ليالي الغارات تستطيع أن تشهد وأن تسمع ما لا عين شهدت ، ولا أذن سمعت ، قبل هذه الليالي السوداء !

* * *

دخل المخبأ متأخراً عن رواده بقليل رجل يحمل في إحدى يديه مصباحاً كهربائياً (بطارية) يستعين به بين الفينة والفينة على تعرف طريقه ، فما كاد يطأ بقدميه بابه حتى ضغط زر المصباح ليرى ما أمامه ، ولكنه سرعان ما ارتد إلى الوراء مفزعاً مضطرباً إذ تعالت صيحات الاحتجاج والتوبيخ الموجهة إليه من كل جانب

— من هذا الحمار الذي يريد ضياعنا في شربة ماء ؟!

— من هذا المجرم الذى يريد قتلنا ؟ !

— أطفئ النور أيها المغفل

— الله ، الله ... أتريد قتلنا بمصباحك كما قتل مصباح آخر قوماً آخرين بالإسماعيلية ؟

* * *

ووسط ذلك السكون الرهيب والظلام الدامس انبعث صوت متحدث رزين تدل نبراته على فرط الرسوخ فى العلم قال زاده الله علماً ومعرفة :

— الصمت مطلوب فى هذه اللحظة يا إخوان، لأن طيارات الأعداء بها أجهزة خاصة لالتقاط أصوات المتكلمين وهى من الدقة بحيث لا يخفى عليها حتى همسات الهامسين ... ضموا ألسنتكم فى أفواهكم ، وإن استطعتم فاكتموا أنفاسكم على قدر الاستطاعة ! بهذا حكم الله وبه قضى ، ولا راد لقضائه سوى رحمته . واعلموا أن كل من يجازف بالحديث أثناء تحليق الطائرات فى الجو كأنه يريد أن يدل الأعداء على مكاننا ، أو بمعنى آخر كأنه يريد القضاء على نفسه وعلينا جميعاً

ولست أدرى هل صدّق الناس قول ذلك الخبير العجيب أم لم يصدقوه ، فإن واحداً منهم لم يعترض على ما قال ولم يحاول مناقشته ، ولكنى لا أشك لحظة فى أن جارتى العجوز قد آمنت بكل كلمة من كلامه ، وإلا فما بالها تكتم أنفاسها ذلك الكتم الشديد الذى جعلها فى آخر الأمر تعلن إفلاسها فى تلك المحاولة العسيرة قائلة : يفعل الله ما يشاء ... إننى أكاد أموت اختناقاً

ثم جازفت وعادت سيرتها الأولى فى استنشاق الهواء ونفثه بالكيفية المعتادة

* * *

وعند مدخل المخبأ وقفت مع بعض اللاجئين فراراً من الجو الخانق فى داخله كان بيننا جندى من أهالى الصعيد يظهر من لهجته الجافة أنه لم ينل أى نصيب من التعليم أو التهذيب

ومما يدل على حاجته الشديدة إلى دروس فى الذوق أنه اختار هذه المناسبة ليحدثنا عن جماعة لجأوا إلى مخبأ فى بلد من البلاد المنكوبة بالغارات فأصيب ذلك المخبأ وهم فيه بقنبلة مباشرة نسفته نسفاً وجعلت من فيه أشلاء لا يعرف فيها القدم من العنق ولا المعصم من العامود الفقرى !

وفى أثناء حديثه ظهرت أنوار المصابيح الكاشفة منعكسة على السحاب فأراد أحدنا أن ينتهز فرصة ظهورها ليحول التفاتنا إلى غير ذلك الحديث المقلق للراحة حديث الجندى الأبق ؛ فقال وهو يشير بسبابته إلى حيث تلك الأنوار :

— أنظروا ! ها هى الأنوار الكاشفة قد بدأت عملها

ولكنه ما كاد يفعل حتى انقض الجندى على ذراعه الممدودة فى الفضاء وإذا به يجذبها فى شدة وعنف قائلاً فى غضب ليس بعده غضب :

— أأنت مجنون يا هذا ؟ أتريد أن ترى الطيارات ذراعك الممدودة وسبابتك الموجهة إليها فتعرف مكاننا ولا تتركنا إلا أشلاء لا يعرف فيها القدم من العنق ولا المعصم من العامود الفقرى كما حدث فى ...

واستأنف حديثه كما بدأه . . .

* * *

وردد الفضاء صوت انفجار أول قنبلة مضادة للطائرات ، ثم تلاه أصوات متلاحقة لقنابل أخرى تتفاوت فى الشدة والقوة فسرت فى المخبأ دمدمة رهيبة تلاها صمت كصمت القبور لم يقطعه إلا صوت امرأة تخاطب زوجها قائلة :

— هذا صوت قنابل الطيارات . إنهم يضربون البلد ! لا بد من الهجرة غداً

فأجابها فى صوت ضعيف مستكين :

— ليست هذه قنابل الطيارات

— ماذا تكون إذن ؟ لا بد من الهجرة غداً . . . غداً من الفجر بإذن الله . هل جننت حتى أعيش فى هذا الجحيم ؟

— ليست هـذه قنابل الطيارات . قلت لك إنها المدافع المضادة هنا

— بل هي قنابل الطيارات

— ليست هي قنابل الطيارات

— بل هي قنابل الطيارات

— ليست ...

وشفع كلامه في هذه المرة بحركة صاحت على أثرها المرأة صياحاً منكراً ، وإذا بها معركة زوجية من الصنف الحاد وطغا صوت المرأة على صوت أضخم المدافع وأقواها صوتاً

* * *

وكان الأستاذ كامل قد احتسى كأساً أو كأسين غير حاسب للغارات حساباً ؛ فلما فاجأته غارة الليلة وهو في نشوته اللذيذة هبط إلى المخبأ وهو يلعن الحرب ومن كان السبب في شبوبها

وهناك انتبذ ركناً قصياً واستسلم للتفكير

ولكنه لم يهنأ بجلسته طويلاً ، إذ صاح صبي من الصبية كان يجلس إلى جواره قائلاً :

— هنا رجل سكران يا ماما ... في المخبأ رجل سكران طينة ... إنني أشم رائحة الخمر . وأيدته امرأة عجوز قائلة :

— إن رائحته كبرميل من الخمر القذرة

وإذا بدردبيس أخرى تقول :

— إن وجوده بالخندق نجاسة !

فلم يسع كامل أفندي إلا أن ينفلت من مكانه في سكون تاركا القوم قبل أن يكتشفوا أمره ... ومن يدري ماذا يفعلون به حينئذ ؟ !

وأقسم من تلك الليلة ألا يفوقها إلا نهاراً . . .

* * *

في المخبأ عجائب لا تجتمع في مكان آخر ، وفيه مفارقات لا تخطر على بال

ها هنا رجل جبان رعديد ينتفض من الفزع ، بينا أخذت طفلة في الخامسة تشجعه وتهون الأمر عليه

وهناك فتاة عابثة تضحك من كل شيء ومن لا شيء

في المخبأ لمحات من الفكاهة الصافية الحلوة وصور عابسة من الأسى المرير . وإذا كنت لم تر السعادة مرتسمة على وجه من الوجوه فتعال إلى المخبأ وانظر إلى وجوه الخارجين منه بعد انتهاء الغارة وكأنهم يبعثون !

أما إذا أردت أن ترى الهم في أتم صوره فانظر إلى ذلك الوالد وهو يجلس إلى جوار زوجته المريضة وقد حمل على يديه ولداً من أولادها بينا حملت هي آخر ، بينا جلس بينهما ثلاثة أو أربعة آخرون .

(السويس) محمد محمود زيتون

إلى هواة المغناطيسية وإلى المصابين بالاضطرابات العصبية

ترسل تعليمات مجانية عن شرح طرق وتمرينات تعلمك كيف تتخلص من الخوف والوهم والخجل والكآبة والوسواس ومن جميع الاضطرابات العصبية والعادات الضارة كشرب الدخان ومن الملل والآلام الجسدية وفي تقوية الذاكرة والإرادة ودراسة الفنون المغناطيسية لمن أراد احتراف التنويم المغناطيسي والحصول على دبلوم في هذا الفن . اكتب إلى الأستاذ أتريد توما ٢١٩ شارع الخليج المصري بشبرا بمصر وارفق بطلبك ٢٥ مليما طوابع للمصاريف تصلك التعليمات مجاناً .

مجموعات الرسالة

تباع مجموعات الرسالة مجلدة بالأثمان الآتية : السنة الأولى في مجلد واحد ٥٠ قرشاً ، و ٧٠ قرشاً عن كل سنة من السنوات : الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والثامنة في مجلدين . وذلك عدا أجرة البريد وقدرها خمسة قروش في الداخل وعشرة قروش في السودان وعشرون قرشاً في الخارج عن كل مجلد .

٢٠ ـ المصريون المحدثون

شمائلهم وعاداتهم

في النصف الأول من القرن التاسع عشر

تأليف المستشرق الإنجليزي ادورد وليم لين

للأستاذ عدلي طاهر نور

تابع الفصل السادس – عاداتهم

من العادات التي تراعيها طبقات الشعب أن تذهب العروس ظهر الأربعاء الأول أو بعيد الظهر، أو يوم السبت إذا كان الزواج يتم مساء الإثنين، إلى الحمام في أبهة واحتفال[1] . ويسمى هذا زفة الحمام. فيتقدم الزفة فرقة تتكون من مزمار أو مزمارين وطبول مختلفة الأنواع[2] . وكثيراً ما تنتهز الفرصة للاحتفال بختان الولد؛ فيسير هذا وحاشيته خلف الموسيقيين بالطريقة السابق ذكرها. وقد يتقدم حاشية العروس رجلان يحملان الأواني والملابس التي تستعمل في الحمام على صينيتين مستديرتين تغطيان بنسيج من الحرير المطرز أو الساذج. ويوجد أيضاً سقاء يروي ظمأ السائرين، ورجلان آخران يحمل أحدهما قمقماً من الساذجة أو الفضة، أو من الصيني مملوءاً بماء الورد أو زهر البرتقال يرش منه على السائرين من وقت لآخر. ويحمل الآخر مبخرة من الفضة يحرق فيها العود وغيره من المواد العطرية، ولكن يندر أن تسير الزفة بهذه الطريقة. وتكون حاشية العروس من صديقاتها وقريباتها المتزوجات، يتقدمن اثنتين اثنتين، وتتلوهن الفتيات العذارى. ويلبس المتزوجات الملابس العادية ويتدثرن بالحبرة الحريرية السوداء؛ أما الأخريات فيلبسن الحبرة الحريرية البيضاء أو الشال. ثم تلبس العروس تحت مظلة حريرية ذات ألوان زاهية قرنفلية أو وردية، أو صفراء، أو ذات لونين معاً على هيئة خطوط عريضة غالباً ما تكون وردية وصفراء. ويحمل المظلة من قوائمها الأربعة المثبت على كل منها منديل مطرز، أربعة رجال. ويفتح صدر هذه المظلة. وتختفي العروس تحت ملابسها فتتدثر من قمة الرأس إلى أخمص القدمين بشال كشمير أحمر، أو نادراً بشال أبيض أو أصفر، ويتوج رأسها بغطاء من الورق المقوى يوضع عليه الشال فيحجب عن الأنظار وجهها وملابسها الثمينة وحليها خلا قصة أو قصتين[1] . وحلى أخرى أحياناً من الماس والزمرد تعلق على هذا الموضع من الشال الذي يغطي الجبهة. ويرافق العروس تحت المظلة اثنتان أو ثلاث من قريباتها، وامرأة أخرى تروح عليها عند ما تشتد الحرارة بمروحة كبيرة من ريش النعام الأسود يزين أسفلها مرآة صغيرة. وقد تقام زفة واحدة لعروسين معاً تحت مظلة واحدة. وتسير الزفة ببطء شديد وتتبع طريقاً ملتوياً ليطول العرض. وتتوجه إلى اليمين عند البدء في السير؛ ويأتي في ذيل الزفة فرقة موسيقية أخرى مثل الأولى أو فرقة من طبالين اثنين أو ثلاثة. ويلاحظ أن السائرات في زفة العروس من الطبقة السفلى يزغردن كثيراً. ويزغرد كذلك نساء الطبقة الفقيرة كلما شاهدن زفة

(شكل ٤٦) زفة عرس « قسم أول »

وقد يستأجر الحمام كله للعروس وحاشيتها فيمضين ساعات أو ساعتين على الأقل في الاستحمام واللعب وتناول الطعام. وكثيراً ما تستأجر العوالم (القيان) لتسليتهن في الحمام. ثم تعود

(١) وقد رأيت مرة هذه الزفة وأخرى صادفتها فيما بعد تسير بعد ذلك الوقت بكثير وتعود بعد الغروب بساعة

(٢) وتوقع الموسيقى على العموم بعالى وتعزف عادة المخاشمية

(١) أنظر وصف هذه الحلى في الملحق

الزفة بالنظام نفسه . ويتحمل أهل العروس نفقات الزفة ، إلا أن العريس يقيم المأدبة التي تعقب ذلك

وتعود العروس من الحمام إلى منزل أهلها فتتناول مع رفيقاتها العشاء . وتصحبهن القيان لاستئناف اللهو . وتدور أغانيهن على الحب والزواج . وبعد ذلك تعجن بعض الحناء وتضع العروس قطعة من العجين في يدها ، ثم تتناول (النقوط) من ضيفاتها ، فتلصق كل منهن قطعة من النقود الذهبية عادة في تلك العجينة حتى لا يبقى موضعاً فيها ، فتقشطها العروس حينئذ بعيداً عن يدها على حافة وعاء مملوء ماء ، ثم تضيف بعض الحناء إلى يديها وقدميها وتربطها بالكتان حتى الصباح ، فتصبغ بلون أحمر برتقالي قان . وتستعمل المدعوات ما تبقى من الحناء لصبغ أيديهن . وتسمى هذه الليلة (ليلة الحنا)

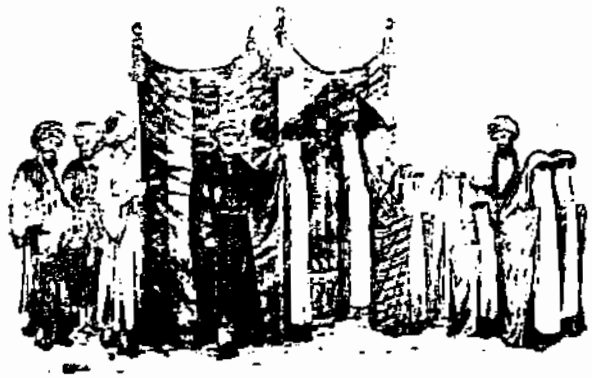

(شكل ٤٧) زفة عرس « قسم ثان »

ويقيم العريس الحفلة الكبرى في هذه الليلة ، وأحياناً في اليوم السابق . فيعرض (المحبزون) ألعابهم أمام المنزل أو داخل الفناء إذا كان المنزل واسعاً . وقد وصفت الألعاب الشائعة الأخرى التي تعرض على المدعوين لتسليتهم .

وتزف العروس إلى منزل عريسها في اليوم التالي . وتسمى هـذه الزفة لأهميتها (زفة العروسة) . أما الزفة السابق وصفها فتسمى (زفة الحمام) لتمييزها عن الأخيرة . وقد تسير العروس إلى الحمام بغير أبهة أحياناً تقليلاً لمصاريف الاحتفال وتكون الزفة إلى منزل العريس فقط . وزفة العروس كالزفة السابقة تماماً . وتتناول العروس الفطور مع صاحبتها ثم تبدأ الزفة بعد الظهر ، فتسير ببطء وانتظام كزفة الحمام سيراً طويلاً خلال الشوارع الرئيسية لأجل العرض ولو كان منزل العريس قريباً . وقد تدوم الزفة ثلاث ساعات أو أكثر عادة . وقد يتظاهر أمام الزفة مبارزان لا يلبسان غير السراويل ، أو يتضارب فلاحان بالنبوت أو بغيره . وترحب العائلات الموسرة بمن يجهد تسلية المتفرجين بحيلهم وألعابهم العجيبة أثناء زفة العروس ، وتقدم إليهم هدايا جميلة[1] . وحينما زوج السيد عمر نقيب الأشراف الذي كان الوسيلة الكبرى لبلوغ محمد على ولاية مصر ، بنته منذ حوالي خمس وأربعين سنة سار أمام الزفة شاب قد شق بطنه وأخرج أمعاءه على صينية من الفضة ، ثم أعادها إلى موضعها بعد الزفة ولزم السرير عدة أيام قبل أن يشفى من آثار هذا الجنون الكريه . وضرب آخر ذراعه بسيفه أمام المتفرجين ثم شد جرحه قبل أن يخرج السلاح ببضعة مناديل تشربت بالدم . وقد وصف لي هذه الألعاب شاهد عيان . وهناك مشهد أكثر غرابة وأشد إثارة للاشمئزاز لا يقل شيوعاً في هذه المناسبات عادة إلا أنه يندر أن يشاهد الآن[2] . وقد يعرض الحواة أيضاً حيلاً مختلفة إلا أن أكثر الألعاب تكون تقليداً للمعارك . وقد تعرض مثل هذه الألعاب في الاحتفال بختان ، وقد تسير في الزفة العظيمة عدة عربات يركبها صناع وتجار من مختلف الفنون والحرف الممارسة في العاصمة يتلون أعمالهم العادية . ويوجد في إحدى العربات بعض الرجال يصنعون القهوة ويقدمونها إلى المتفرجين أحياناً ، وفي عربة أخرى يجلس بعض الموسيقيين ، وفي عربة ثالثة بعض العوالم . وتركب العروس في مثل هذه الزفة عربة أوربية مقفلة ، ولكن كثيراً ما تركب العروس وقريباتها وصديقاتها

---

(١) وأكثر ما يشاهد في هذا الوقت العمل الشاق الذي يقوم به سقاء يطلق عليه لقب (قيم) ، ليحصل على هدية ولقب زهيد . فيحمل قربة ثقيلة تملأ رملا وماء أطول وقت دون أن يستريح بالقعود إلا إذا حبا . وقد شاهدت أخيراً في زفة عرس قيا يحمل قربة من الرمل والماء تزن أكثر من قنطارين ، ابتداء من غروب اليوم السابق قبل الزفة وأتمامها حتى الغروب

(٢) وقد وصفه «بركهاردت» وصفا صحيحا في كتابه «الأمثال العربية» (ص ١١٥ — ١١٦)

الحبر فوق البراذع المرتفعة ، ويتقدمهن الموسيقيون والمغنيات ويتلوهن فرق أخرى في نهاية الزفة

وتؤدب للعروس ورفيقاتها مأدبة عند بلوغهم منزل العريس ، وسرعان ما تنصرف الصديقات وتبقى أم العروس وأختها وحدها معها أو إحدى قريباتها الأخريات وامرأة أخرى تكون (البلانة) عادة ، وتسمى الليلة التالية (ليلة الدخلة)

ويبقى العريس في الدور الأسفل ، ويذهب قبل الغروب إلى الحمام فيغير ملابسه وقد يغيرها في المنزل ؛ وبعد أن يتناول وجبة العشاء مع بعض أصدقائه ينتظر قليلاً إلى قبيل الصلاة أو إلى هزيع من الليل ، ثم يذهب حينئذ ـ حسب العادة الشائعة ـ إلى أحد المساجد المشهورة مثل مسجد الحسين لإقامة الصلاة ؛ وتقام له بهذه المناسبة زفة إذا كان شاباً ، فيتوجه إلى المسجد مسبوقاً بفرقة من طبالين وزمار أو زمارين ، وبصحبته بعض أصدقائه وحاملي المشاعل : والمشعل عبارة عن عصا طويلة ينتهي طرفها الأعلى بإطار إسطواني من الحديد يوضع فيه خشب مشتعل ؛ وقد يكون لها أكثر من وعاء واحد للنار (أنظر شكل ٤٨) ،

(شكل ٤٨) مشاعل

وتسير الجماعة إلى المسجد عادة بخطى سريعة ونظام قليل ، وتختم الزفة فرقة موسيقية كالأولى أو فرقة طبالين . ويلبس العريس عادة قفطاناً ذا خطوط حمراء وجبة حمراء ويتمم بشال من الكشمير باللون نفسه ، ويمشي بين صديقين في مثل ثيابه . وتقام الصلاة للاحتفال فقط ، وفي أكثر الأحيان لا يصلي العريس مطلقاً ، أو يصلي من غير وضوء مثل المماليك الذين يقيمون صلاتهم خوفاً من سادتهم فقط[1] . وتعود الزفة من المسجد في نظام أتم وأبهة أعظم وُبطء شديد . وربما كان سبب ذلك أنه لا يليق بالعريس أن يسرع إلى المنزل ليحظى بعروسه . ويتقدم الزفة — كما سبق — موسيقيون وحاملو مشاعل ، يتبعهم رجلان يحملان على كتفيهما إطاراً معلقاً في مذراة يتدلى منه ستون فانوساً صغيرة أو أكثر مقسمة إلى أربع دوائر تعلو إحداها الأخرى ، ولا تثبت الدائرة العليا بحيث يستطيع أحد حامل الإطار أن يديرها من حين لآخر . ويثير لألاء هذه الفوانيس والمشاعل الكثيرة الشوارع التي تمر فيها الزفة ، فتحدث تأثيراً جميلاً يستحق الاعتبار . ويتقدم العريس وأصحابه وغيرهم في شكل حلقة مستطيلة متقابلين وفي يد كل منهم شمعة أو أكثر ، وأحياناً يحملون أغصاناً من شجر الحناء أو بعض الزهور عدا العريس وصديقيه على كل جانب ، وهم يمشون في مؤخر الحلقة التي تشمل عشرين شخصاً أو أكثر . وكثيراً ما يقف الموكب برهة يغني أثناءها أحد رجال الحلقة أو صبيانها أنشودة العرس ، ويقف أثناء ذلك دق الطبول ونغمات المزمار الحادة التي تبلغ مسامع العروس قبل وصول الزفة إلى المنزل بنصف ساعة أو أكثر . وينتهي الموكب كما سبق بفرقة موسيقية ثانية

هذه هي الطريقة الشائعة في زفة العريس . وهناك طريقة أخرى أكثر اعتباراً تسمى (زفة ساداتي) يسير العريس فيها بين أصدقائه كالطريقة السابقة وبين حاملي المشاعل دون الموسيقيين ، ويستخدم مكان هؤلاء رجال يسمون لاحترافهم الغناء في مثل هذه الأوقات (ولاد ليالي) ويتوجه العريس بين هذه الحاشية إلى المسجد . ثم يعود الموكب على مهل ويشرع المنشدون في الغناء أو إنشاد الموشحات في مدح الرسول (صلعم) ويرتلون متعاقبين ما تيسر من القرآن بعد الوصول إلى المنزل ، ثم يقرأون جميعاً الفاتحة ، وينشد أحدهم بعد ذلك قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ وأخيراً ينشد الجميع مرة أخرى الموشحات ويتناولون النقوط من العريس وأصدقائه

(يتبع) عدلي طاهر نور

(١) ومن هنا سميت هذه الصلاة « صلاة مماليكية » أو « صلاة المماليك »

برقــــة

للأستاذ عبد اللطيف النشار

ما بَرْقة تلك التي خَلقَتْ لنا ... شغلاً وشغلاً للهواجس في غد

تلك التي حمل ابن أوس همها ... في بارع بادي الجمال مخلد

(أصبا الأصائل إن برقة تنشد ... تشكو اختلافك بالهموم العوّد)

أم برقة أخرى وكم من برقة ... أخنى تألقها اتساع الفدفد

قد كدت أنساها الطول تذكري ... فضللت حتى كدت ألاّ أهتدي

(ياجارة الوادي) ولست بجارة ... إن لم تردي عنه كيد المعتدي

ثأرُ السنوسيين لما ينسه ... أهل العروبة والقسان الأمجد

جبَّتْ عروبتنا عهوداً قبلها ... ومضت حفائظنا وراء المسجد

مضت الألوف من السنين بما حوت

- ... مما حمـــدناه وما لم نحمد

والآن يقرئ بالسلام عينيهم ... ويسارهم أبناء دين محمد

ولقد شهدت وأدمعي منهلة ... أسرا كمو، يا ليتني لم أشهد!

أمحالفون لغزو مصر عدوكم ... وعدوّها وعدو أهل السؤدد

يا جارتا إن كنت غير مطيقة ... إدراك ثأرك فاغضبي وتمردي

أنا لا ألوم على المساوئ أهلها ... إن كنت لما تدركي فتجلدي

إني لأذكرها فأذكر شاعراً ... (غلق الظنون فبات غير موسد)

* * *

ماذا شهدت؟ شهدت أسمج مشهد

فتيان رومة في القميص الأسود

وأظنهم لا ينزعون سوادهم ... لا بل يحاك عليهمو بالمبرد

صدأ العقول كسا الجسوم بلونه ... فمشوا عراة مشية المتبلد

فرحوا بأسرهمو فدان ألوفهم ... في موكب الأسرى لفرد أوحد

لا بل همو اعتادوا المذلة قبلها ... فبـــلادهم تعنو لرأي مفرد

متبجح جعل الصياح أداته ... فسما على أكتاف شعب مجهد

لا تطلبوا من خاضع حرية ... (صعب على الإنسان ما لم يعتد)

أمر الجنود بغزو مصر فأذعنوا ... وأتوا إلى مصرٍ بغير تردد

لا فاتحين ولا غزاة وإنمـــا ... أمروا فكانوا طوع أمر السيد

ووراءهم (عَرَبٌ) فوا أسفا لهم ... لِمَ يتبعون جيوش طاغ معتد؟

وإذا أردت عن الحروب نبوة ... فانظر إلى الجندي ماذا يرتدي

الفاتحون، ثيابهم وحلاهمو ... شهدت لهم بعقاب يوم مُرْصَد

شعر أغصُّ به فذلكمو أخي ... ولو أنه في نهجه لم يرشــد

لو كنت من أبناء برقة ما خطت ... رجلي إلى مصر وسيفي في يدي

هيا ادخلوها راكعين وسجداً ... أنتم بمصرٍ عند أقدس معبد

لو يشهد «المختار» أسرى برقة ... لرثى لشعب في الهوان مبدد

سد يا حليف فكل فرد سيد ... لـكن شعبك ماله من سيد

لا ندعي لك عصمة في موقف ... لا بل نقول لصاحب لا تبعد

طال الخلاف وما تزال بقية ... منه ولـكنا كرام المحتد

خلق الوثائقَ والكتابةَ قومُنا ... حرصاً على عهد لهم أو موعد

سادوا، وما سادوا بغير جدارة ... ما ساد إلا كل سامي المقصد

عبد اللطيف النشار

في مسابقة اللغة العربية ... يصدر قريباً كتاب

« من شعر أبي تمام »

ويشمل المقرر في امتحان الترقية إلى الثانوي في النصوص من شعر أبي تمام والقصائد الخمس الأولى من المفضليات مضبوطاً ومشروحاً شرحاً وافياً ومعلقاً عليه بقلم:

محمد محمود رضوان

الثمن ١٠ ترسل باسم المؤلف بمدرسة بني سويف الابتدائية الأميرية

« الرســـالة »
في عيدها العـاشر

[مهداة إلى « الرسالة » الحبيبة وإلى أقطابها الثلاثة : الزيات والعقاد وزكي مبارك ...]

للأستاذ أحمد أحمد العجمي

حيِّ « الرِّسالةَ » وَاقبِسْ مِنْ مُحَيَّاهَا ... مَا شِئْتَ مِنْ حُسْنِهَا أَوْ مِنْ حُمَيَّاهَا !!
رَفَّتْ عَلَى الشَّرْقِ أَنْدَى مِنْ أَزَاهِرِهِ ... كَأَنَّ مِنْ نَفَحَاتِ الْخُلْدِ رَيَّاهَا
وَأَشْرَقَتْ بِشُعَاعِ الْفِكْرِ نَاضِرَةً ... تَسْبِي الْقُلُوبَ وَتجري في حنـاياها
حسْنَاءُ أَوْفَتْ عَلَى عَشْرٍ وَمِنْ عَجَبٍ ... سِرُّ البرية لا يَعْـدُو ثَنَايَاهَا
ترجو العيونُ إذا أبصَرْنَ نَضرتَها ... لَوْ أَنَّهُنَّ شِـفَاهٌ قَبَّلَتْ فَاهَا
مَضَى الزَّمانُ عليها وَهْيَ أُغنِيَةٌ ... فَمُ الخلودِ ارْتَوَى مِنْهَا وَغَنَّاهَا
تختالُ بالفنِّ وَالآدابِ مُترَعَةً ... كالنهرِ يضحكُ أعشاباً وأمواهاً
الفكرُ أدَّبها ، والعقلُ هذَّبها ... والطبعُ حبَّبها ، والحُسْنُ جلَّاها
والشرقُ مِن وِرْدِها رَيَّانُ مُقتبِسٌ ... مِن نورها مُستمِدٌّ مِن سجاياها
تغدو عليه كأنفاسِ الربيع لها ... في كل قلبٍ معانيها ونجواها
وللحياةِ مجـالٌ في صحائفها ... كالنفس تزخرُ بالدنيا طواياها
لم يبقَ للكون سرٌّ بعد ما بعثتْ ... شُعاعها في الدُّنى يجلو خفاياها

رسالةُ النيـل لا يبغي بها بدَلاً ... وَهْيَ « الرسالة » و« الزياتُ » أدّاها
سَمَتْ إلى المجد وَالعَلْيا وصاحبُها ... أوفى على الغاية القُصوى ورقّاها
في كلِّ لفظٍ من « الزياتِ » أغنيةٌ ... الشعرُ يعشقها والفكرُ يهواها
والفنُّ في أدبِ « الزيات » مَوْهبةٌ ... الحُسْنُ باكَرَها والسحرُ غاداها
مازال يهتف بالفصحى ويكلؤها ... حتى غدا وهوَ حاميها ومولاها

أما « زكيٌّ » فلا والله ما خلقتْ ... له الطبيعةُ أنداداً وأشباهاً !
أهفو إليه كأنَّ النفسَ غارقةٌ ... في حُبِّهِ ! وكأنَّ الحبَّ سَلْواها
حديثهُ ذو شجونٍ سحرُها عجبٌ ... ما رادها شـاعرٌ إلا تمنَّاها
معنًى جميلٌ وأسلوبٌ له صِـلةٌ ... بالموج في البحر : هدّاراً وتيّاها
لو أنَّ بالخمر معنًى من سلاسته ... لباعتِ الناسُ بالأقداحِ دُنياها !

وسائلوني عن « العقاد » إنَّ له ... نفساً تفيضُ المعاني من زواياها
أصفَى من الكونِ تختالُ الحياةُ بها ... بالشعرِ والحبِّ والدُّنيا ومغزاها
له عَلَيَّ أيادٍ ليس يعرفُها ! ... ولستُ أجهلُها بل لستُ أنساها
ديوانهُ قِبلتي ألقى الحياةَ بها ... حسناءَ بالحُبِّ تلقاني وألقاها
مِرآةُ نفسٍ جمالُ الكونِ زوّقها ... وسِرُّ رُوحٍ لسانُ الدهرِ ناجاها
أقسمتُ أنكَ يا عقادُ معجزةٌ ... هيهاتَ يدري ضميرُ الكونِ معناها
آمنتُ بالشعرِ يا عقادُ في بلدٍ ... غلَّ العَمَى مُقلتيها ثم غشَّاها
للجهلِ فيها دواوينٌ وأروقةٌ ... تدعى المدارس حيَّ الله مبناها !
آمنتُ بالشعر والدنيا تضيق به ... وطالما أضحك الدُّنيا وأبكاها
أنا – وياويح من تجنى عليه أنا – ... كزهرة الجبل العالي وريّاها !
يضوع منها الشذى لكن يضيع سدى ... مع الرياح وما تدري ببلواها
حسبي من الدهر أني أحيا بعاطفة ... مماتها في سبيل الشعر محياها !

(كوم النور) **أحمد أحمد العجمي**

ليـــلة عيد الميلاد

للكاتب الإنجليزي « نيورورميو »

بقـــلم الأستاذ كامل يوسف

— ١ —

طلب الناس الهدنة من أحزانهم ليـلة ٢٥ ديسمبر سنة ١٩١٧ وراحوا يحيون ذكرى ميلاد « السيد المسيح » ، فأنيرت الثريات الملونة، وأوقدت شموع شجرة الميلاد في كل دار، وتدفق الشراب في أجواف الناس ، حتى أصبحوا لا يشعرون إن كانوا يحملون فوق أكتافهم رؤساً أم أثقالاً . وامتلأت البطون بألذ وأشهى المآكل ، حتى خيل إليهم أنهـا تكاد تنفجر من فرط ما استقر فيها، وتلمس كل المتع فمن مخاصر إلى مراقص إلى مناج إلى مختلس للقبلات . كان الناس على هذه الحالة من المرح والسرور ، وهم يقولون في أنفسهم : « غداً سيكون الطوفان » فستحمل إليهم الأنباء ويلات الحرب التي نزلت بذويهم وفلذات أكبادهم ، وربما حملت إليهم هـذه الأنباء ، وأشفق ذوو الأمر من تبليغها حرمة لهذا العيد المقدس .

في هذه الليلة تنبه شيطان من شياطين العالم الآخر على حركة مرح غير عادية في الكوكب الأرضي ، واستغرب صدور ذلك من سكان الأرض وقال في نفسه : « لعلهم لا يشعرون بما يجرى من ويلات ! » ولم يدر سبب ذلك فلجأ إلى زميل من زملائه يعبر له عن عجزه عن إدراك السبب ، وكان بجوارهما مفستو فليس كبير الأبالسة ينصت إليهما فقال لهما في ابتسامة ساخرة : ألا تعلمون سر هذا المرح ؟ اليوم ذكرى ميلاد رب السلام ، فأخي الإنسان ! إنه ينسى مصائب الأجيال والأزمان ممثلة في الحرب الأوربية الآن ويهلل فرحاً بهذا العيد !

فلما سمع الشيطانان ذلك قال أحدهما للآخر : ما دام الأمر كذلك فدعنا نمرح ونضحك من الناس قليلاً هذه الليلة .

فأجابه الآخر : وأين نضحك وهنا مجال عملنا في الضحك والاستهزاء ، وأشار بيده إلى جهنم . فقال الأول : حقاً إنه لمجال مُملٌّ ممل، وإنه لا يسرني شيء أكثر من ذلك الرجل الذي يقال له فيدياس فقد قيل عنه إنه أخرج أحسن دمية عرفها التاريخ، ومن ذلك الرجل الذي يقال له « دافنشي » ، ومن ذلك الرجل العابس الذي كان يكره أمه كرهاً عميقاً وانفصل عنها ثم جمعتهما المصادفة في موطننا العزيز أعني به «شوبنهور» . ليس يضحكني أكثر من هـذه الشخصيات الغريبة التي تبددت في شخص امرأة جميلة ، رآها فيدياس فقال إنها أجمل مما صاغته يده ؛ ورآها دافنشي فاعترف بحقارة فنه تجاهها ؛ ورآها الرجل العابس شوبنهور فأقر بخطأ رأيه في المرأة وعادت العلاقات بسببها مع أمه ، تلك المرأة المتحذلقة ، ورآها لويس الرابع عشر فأمر مدام بمبادور أن تكون خادمتها ، واستحت كليوبطرة أن تظهر أمامها لئلا تفقد شهرتها التاريخية .

وكان هذا الشيطان مع حداثة عهده قديراً مبدعاً في مخاطراته، وساخراً بارعاً في أفعاله ؛ وكان زميله ينصت إليه بشوق ولذة ، فقال له وهو معجب : هيه يا بعلزبول ! فاستمر الأول يقول: تصور هذا الجمع من الجانين تظهر في وسطهم حورية ! لقد كنت أتودد إلى كل واحد منهم على حدة حتى أدعه يثق بأنها أصبحت أسيرة هواه ، فإذا استقر هـذا الرأي في ذهنه تحولت عنه إلى آخر ، ومثلت هذا الدور نفسـه مع كل واحد ، وبذلك استفززت غيرتهم جميعاً فنشب بينهم الخصام . وسمعت شوبنهور يقول بعد ما قاسى الخيبة : « محال أن أنزل عن رأيي الذي ذكرته في المرأة . إنها الخادعة الماكرة » وسمعته ينادي نيتشه : تعال يا بني وهات معك سوطك لكي أنتقم مع هذه المرأة المغرية » فقد ضحكت كثيراً من حركات هذا الفيلسوف العصبية . وودت لو صورت نفسي على مثال كلبه لكي أمزح معه ، ولكني أشفقت على أعصابه . لقد كان يوماً جميلاً حقاً ظللت فيه أبحث عنك لكي تشهد هذا الفصل المضحك فلم أجدك ، فأين كنت ؟

— كنت مشغولاً بدعاية من نوع دعايتك . فقد هيأت لنيرون أن يشعل النار في جهنم ليزيد في لذته ، فإذا اصعد

لذلك ظهرتُ كالمارد فاستخزى وسكن جنونه . ولكنى فى الحق سئمت هذا المزاح وتاقت نفسى إلى شىء جديد .

فقال الشيطان الأول : وأنا كذلك أريد تجديداً .

ثم قال فرِحاً كمن طرأ عليه خاطر جميل : دعنا نمرح ونسخر مع من فى الأرض الليلة ؟

— وهو كذلك . إنها لفكرة حسنة . دعنا نضحك من سخفهم هذه الليلة .

— ٣ —

فى مساء تلك الليلة اجتمعت الجموع فى كنيسة القديس بولس . وكانت الجموع خاشعة ، وقد اكتظت الكنيسة بالمصلين ، كل قد جاء يدعو الله أن يحفظ أهله من شرور هذه الحرب الطاحنة ؛ وكانت صلاة القداس يعلوها وقار وجلال لم يشهد من قبل ، وكانت قلوب المصلين تتجه إلى الذات العلية مخلصة صادقة فى دعواتها وصلواتها ؛ وظل هذا الجلال والصمت لا يقطعهما غير صوت الكاهن وأغانى الشمامسة ونغمات الأرغن حتى أتى دور الدعوات ، فأخذ الكاهن يتضرع إلى المولى عز وجل أن يزيل الكروب ، وكان يجد من مساعدة الشعب له ما يجعلهم يرددون بصوت يرن صداه فى قبة الكنيسة ومن أعماق القلوب « آمين يا رب . آمين يا رب » واستمر الكاهن فى توسله يقول : « وامنع الحروب والغلاء والفناء وسيف الأعداء » ، وقد توجهت القلوب بجماعها إلى الذات الإلهية بإخلاص أن يكشف عن الإنسان ذلك الكابوس الثقيل الذى لم يقاس أفظع منه . ومن منهم لا يتوجه بإخلاص إلى الله بهذه الضراعة وكلهم منكوب إما فى نسله أو فى ذوى قرباه ؟ لذلك كانت « آمين يا رب » تخرج من القلوب بحرارة صاعدة إلى عرش الملكوت فى ذلة الضعيف يطلب صنيعاً من سيده .

فى هذه اللحظة الرهيبة كان المستر باترمان يردد هذه الدعوات وهو يقول فى دخيلة نفسه : « يا رب لا تسمح بإجابة هذه الضراعة لأن فيها خرابى بل خراب أمتنا العزيزة » ، وكان الشيطان الكبير يرافق زميله الصغير فى هذه الحفلة المقدسة . فلما سمعا المستر باترمان اقتربا منه وسمعا أمنيته فضحكا من هذه المهزلة الإنسانية الكبيرة وأرادا أن يعبثا بالمستر باترمان فرغب الشيطان الكبير أن يهوى الرجل على الأرض ، وكان عجوزاً فى السادسة والستين من عمره لا يقوى على الوقوف طويلاً أثناء القداس ؛ لذلك كان يستند على عصاه الأبنوسية ، وفى فترات السكون الشامل بين الضراعة والأخرى ، جاء الشيطان الكبير فزحزح العصا . فسقطت من يد الشيخ العجوز وأحدثت ضجة كبرى لفتت أنظار المصلين ، وانكفأ الشيخ على وجهه وكاد يسقط لولا أن تمالك نفسه ، ولما كان لا يقدر على الوقوف بدون العصا ، انحنى ليأتى بها ، ولكنه ما كاد يقبض عليها حتى خطر للشيطان الصغير أن يعبث به أيضاً فجذب العصا منه ثم تركها تهوى على الأرض فأحدثت مثل الضجة الأولى فى فترة السكون ، ولكن المستر باترمان أحكم فى المرة الثانية القبض عليها ووقف مستنداً إليها وهو يشعر بشىء من وخز الضمير عله بأنه نتيجة أمنياته التى تخالف أمنيات المصلين

والمستر باترمان من أغنياء الإنجليز وصاحب مصانع الذخيرة والأطعمة المحفوظة ، وهو مع ذلك من أقطاب السياسة وله نفوذ كبير فى إدارة دفتها . لذلك لا نستغرب منه هذه الأمنيات السيئة ، إذ فى إبطال الحرب ضياع ثروته التى جعلها فى مواد سيكون مصيرها البوار . وهو ككل رجال السياسة يبعدون عن توخى الصالح العام ، يوقعون الأمم فى شباك الحروب للغنم الذى يعود عليهم أو لخطر وهمى فى أذهانهم ، ويدفعون بملايين من أرواح البشر فى سبيل هذه الغايات المجرمة . وكان من سوء حظ البشرية أن تعتقد فى رجالها القداسة ، وكان المستر باترمان ككل سياسى يبرر موقفه المخزى بشتى العلل والنيات . لذلك كان يجيب على هذه الضراعات التى كانت تخرج من قلوب المصلين ومن صميم الإنسانية جمعاء ، بالتوسل للذات الإلهية ألا يجيبها لماذا ؟ لأن فى إجابتها وانتهاء الحروب ضياعاً لثروة أمة ممثلة فى ثروته تصبح بعدها فى ذل الإفلاس والانحطاط المالى

انتهت الصلاة وخرج باترمان وهو ما زال يشعر بوخز ضميره ، وقصد النادى وخرج وراءه الشيطانان ، وقال أكبرهما : لنتبعه حيثما يذهب ، ولنجعل منه متعة لأنفسنا الليلة . « فما كاد يدخل ردهة النادى حتى سمع أصواتاً عالية كان أصحابها فى مناقشة حادة ؛ فلما دخل القاعة وجد أعضاء النادى فى صخب وجدل فقال

صديقه المستر كونراد عن سر هذا الجدل ، فعلم منه أنهم يجادلون في محاصرة بلاد العدو . وهل هـذا العمل يكلف الحلفاء والإنجليز خاصة أكثر مما يربحون ، ولكن باترمان لم يكن صافي الذهن خلي البال حتى يدلي برأيه ، غير أنه سأل صديقه :

— وهل من جديد في الجو السياسي ؟

فأجابه : لا شيء غير ما نقلته إلينا التلغرافات الآن من أن البابا يناشد الدول المتحاربة وخاصة الحلفاء أن يكفوا عن القتال

وقد وجد باترمان مجالاً يخرج فيه من صمته الذي لزمه منذ كان في الـكنيسة فانفجر صائحاً :

— لقد ضايقنا هذا البابا بأمنياته ، فماذا يهمه من الحروب ؟ نحن الذين ضحينا بأبنائنا وأموالنا لنا الخيار في الـكف عن الحرب أو الاستمرار فيها ؛ أما هو فماذا يهمه من الخسائر ؟ لقد انزوى هو ورجاله في معقل الفاتيكان ثم يريد أن يملي إرادته علينا . إن خير جواب على هـذا النداء أن نقابله بما قوبلت به نداءاته الأخرى بالإعراض والإغفال

فرد عليه صديقه المستر كونراد :

— أنت محق يا عزيزي باترمان . إن البابا لم تحترق يده في النار ليعرف ما هي النار . لذلك لا يمكنه أن يحكم على زعمائنا ؛ وهو لم ينافس في هذا الميدان ؛ وهو وجنوده يمتعون من أكل أجود اللحوم وشرب أفخر الأنبذة . دع غواصة ألمـانية تصيب أربعة منهم وهم يتنزهون في قارب — أقول أربعة فقط لا ملايين كما فجعنا نحن — وعندئذ يحق لنا الأخذ برأيه ونقول إنه جرب الأسى والحزن مثلنا ، وعندئذ لا يبالك أن يصب غضبه وغضب الإله الذي ينوب عنه على هؤلاء السفلة الألمان

وكانت هذه الإجابة قد أرضت سياسينا فكسرت من حدة غضبه ، واطمأنت ثائرة نفسه فقال — هو كذلك — : أوعز إلى الصحف المحافظة أن تستخف بنداء البابا ، ولندع الصحف الـكاثوليكية تتلهى بهذا الحلم الخيالي الذي يبدو جميلاً لأربابها أعني به الصلح والسلام

— وهو كذلك

وانصرف باترمان وخرج من النادي بعد أن وقف على تطورات الحالة السياسية وقصد فندق سيسل ، وكان الفندق غاصاً بالناس تلك الليلة يحيون فيه عيد الميلاد ، ودخل المستر باترمان الفندق وخطا في ردهته الطويلة فلفت نظره في نهايتها ما حرك اهتمامه ، فدرج نحو هذا الشيء وهو يقول في نفسه : « هل بعثت ؟ محال أن يكون ذلك ، فلسنا في عصر المعجزات ، إذن لا بد أن تكون قريبتها » ، وكلما اقترب ازداد يقيناً ، لأن ما رآه أمام ناظريه الآن ينبئ عن صلة القربى . فأمامه سيدتان كبراهما ذات جمال رائع وقامة كغصن البان ، وعيون هي موارد السحر ، وشعر هو الذهب الوهاج ، وسن في حدود الثلاثين ؛ والأخرى لا تقل عنها حسناً ، ولكنها أقصر قامة وأقل فتنة . وقد اقترب منهما باترمان وهو واثق من هذه القربى ، وشغل بها فلم يع شيئاً غيرها . ولمـا وقع نظره عليها شعر بتجاوب العاطفة في نفس تلك السيدة ؛ فقد بدا على ثغرها ابتسامة جميلة فهم منها الشيخ معنى الرضا . ولما اقترب منهما رفع قبعته وانحنى وحياها : « مساء الخير يا سيداتي ! عيد ميلاد سعيد »

فأحنت الـكبيرة رأسها قليلاً بكبرياء ، وأجابت هي وشقيقتها الصغيرة : « مساء الخير يا سيدي ، عيد ميلاد سعيد » . ولم يكن للمستر باترمان يعرفهما من قبل ، ولـكن دفعه إلى هذه التحية وجه الشبه الذي رآه والذي أراد تحقيقه . لذلك لم يلبث أن فاجأها بهذا السؤال : « أليس سيدتاي من أسرة سوانسون » فأجابت الـكبرى في رفق وعلى ثغرها ابتسامة مغرية : « كلا يا سيدي ، بل نحن من أسرة كلارك » . وكان ثغر الصغيرة يفتر عن ابتسامة خفيفة ، ولكن الشيخ لم يقنعه هذا الرد . وذهب إلى أنه لا بد أن يكون هناك صلة قديمة بين أسرة سوانسون وكلارك ، ولـكنه لا يمكنه تحقيق ذلك وهو في طريق كل إنسان يدخل أو يخرج من الفندق . لذلك دعاهما للجلوس معه فلم يرفضا ، وكانتا فرحتين طروبتين ، وقصدا مكاناً قصياً بعيداً عن ضوضاء الأحاديث وصخب الراقصين ، ودعاهما إلى الشراب فلم يرفضا ، وكانت علامات السرور بادية على محياهما ، كما كان الشيخ مسروراً لهذه العلاقة التي ذكرته بالماضي ... وكانوا كلما شربوا كثر ضحكهم وعلا صوتهم ؛ وكان الرائي يشاهد خصلتين من الشعر على فوديهما كأنهما قرنان ؛ ولم يفطن

لذلك الشيخ الذي أعماه السرور ، وقد حق للشيخ أن يسر ، فقد وجد شبهاً قوياً بين السيدة الكبرى وبين زوجته ، كان قد أحب في شبابه فتاة من طبقة النبلاء كانت آية الجمال في عصرها، ثم تزوجها بعد جهد جهيد ولم تعش معه إلا عاماً ونصف عام ثم ماتت على أثر ولادتها الأولى . فقطع على نفسه عهداً منذ ذلك الحين أن يحفظ لها المودة ما دام حياً ، وقد بر بوعده ، وصرف عنايته إلى ابنه « جيمس » وغمره بحبه ، وجعل منه الذكرى الوحيدة لتلك الحبيبة الراحلة ... لذلك كان قرة عينه وحبة قلبه ، لا يألو جهداً في العناية بأمره – ولو كلفه ذلك كل ثروته – إخلاصاً لتلك الفتاة التي فتح لها قلبه لأول مرة ... وكان لجيمس تلك الطلعة السمحة التي كانت لوالدته ، وتلك النونة التي كانت في متوسط ذقنها ، فهو صورة منها . . . كان الشيخ المهدم يرى فيها مطلع السحر ... فلما وقع نظره في تلك الليلة على هاتين السيدتين ، انتعشت روحه ، لأن حبيبته تعود للحياة ثانية . . . واشد ما جذبته تلك الطلعة نحوها لتصور الماضي البعيد المملوء بالأحلام السعيدة ... ذكر كيف ظفر بحبيبته وتذوق السعادة لأول مرة في حياته ! ولكن الشقاء كان يدخر من هذه السعادة فلم يلبث أن انتزعها منه ... هذا الماضي البعيد يعود الآن ، وهو الذي جعله ينسى الحالة السياسية وما فيها من تطورات ومفاجآت ... كانت تشغل باله على الدوام ، وخاصة تلك الليلة . لقد اعتقد تلك الليلة بالبعث ، وكان يقول في نفسه : لعلها تجهل في حاضرها شخصيتها السابقة ... وقد كذب هذا الوهم ما رآه من مياها من أول نظرة إليه . . . فهي هي إذن ، وسذاجتها في حديثها هي سذاجة حبيبته التي ورثها عنها ابنه « جيمس » معبوده الثاني بعد أمه ، وكان يود تلك اللحظة لو يحضر جيمس ليشاهد طلعة أمه – أو على الأقل – ليشاهد طلعة نسخة منها ، ولكن « جيمس » في ميادين الحرب ، قد تملكته النزعة الامبراطورية فأبى أن يخلد إلى السكينة في الوقت الذي تصوب سهام العدو إلى هدم امبراطورية أجداده ، فتطوع في الحرب برغم كل العراقيل التي وضعها والده في سبيله ... ولكن كان يسر الشيخ إذا علم أن الفرقة التي ينتسب إليها ابنه قد حازت انتصاراً على العدو ، وكان يعتقد أن الظفر قد تم بفضل حذق ابنه ، وكان يكثر من ترديد ظفر الفرقة التي يحارب فيها ابنه أمام أصدقائه ، وكان يقول لهم : وإلى حذق ابني يرجع الفضل . . . وكان عند التحاق ابنه بالجيش يخشى عليه عادية الردى ، ولكن بعد أن تدبر تاريخ حياته وما فيه من نكبات وفواجع ، استكثر على القادر أن تختمها بفقده ، وأصبح يميل إلى اعتقاد أن القادر رحيمة ، تكفر عما أصابته بهذه الحسنة ، وقد أغراه بهذا الوهم ما كان يصله من حين وآخر من سلامة ابنه من كل الأخطار ... !

في هذه اللحظة القدسية التي وجد فيها الشيخ نفسه بجوار حبيبته نسي العالم وما فيه من شرور ، وشعر بسمو روحه ولذة قدسية ، كأنها قد هبطت عليه من السماء . . . وكان يزيد هذا الشعور الروحي في داخله كلما فتح عينه فرأى صورة زوجته وحبيبته ، أو هي بذاتها ... ولم يكن هذا الشعور من فعل الخمر ، فإنه لم يكرع غير ثلاثة أكواب من الويسكي لم تحدث له أي جموح في الخيال ، بل هي على العكس قد زادت في انتباهه وذهبت بالغضب الذي كابده طول هذا اليوم

وكان حديث الشيخ عادياً ، أو قل كان مقطوعاً ، وهل في مثل هذه اللحظة يجري الحديث ؟ ... وكان معظم ما فاه به لا يخرج عن تعبيره عن غبطته وسروره وسعادته بتلك اللقيا ، وكانت الفتاتان لا تكلفان أنفسهما أكثر من الابتسامة رداً على تمنياته . وقد أحدث سروره نوعاً من الذهول جعله في عزلة عما يحيط به ؛ حتى إنه لم يشعر بوجود خادم الفندق بجواره يقدم إليه شيئاً في صحن ، حتى نبهته كبرى الفتاتين ، فالتفت إلى الوراء فوجد الخادم ، فقدم إليه برقية وقرأ على الغلاف : في خدمة صاحب الجلالة الملك ... ففهم أنها برقية حكومية ، وما كاد يفض الغلاف ويقرأ البرقية حتى أفاق من نشوته ، وأظلمت الدنيا في وجهه ، وأغمي عليه ... فتناولت الفتاة الكبرى البرقية وقرأتها ؛ فإذا فيها :

« الملازم الأول « جيمس بارمان » أصابته رصاصة قضت عليه . . . ! » (القيادة العامة)

وبعد أن عاد إلى حسه سمع صوتاً يردد : « يارب ، لا تسمع بإجابة هذه الضراعة ، لأن فيها خرابي ، بل خراب أمتنا العزيزة ! » وتلا ذلك ضحكات ملؤها السخرية والتهكم ... ففتح عينيه ، فلم يجد مصدر هذا الصوت ، ولم يجد جليستيه ... ولكنه شعر بحفيف أشبه بحفيف الأجنحة أحدث تياراً شعر به !

كامل يوسف

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)